

روايات مصرية للجيب
أسطورة
صندوق بندورا
62
ما وراء الطبيعة
Looloo www.dvd4arab.com
د. أحمد خالد توفيق

مقدمة

لا أذكر إن كنت حكيت لكم قصة (صندوق بندورا) هذه أم لا ..

المشكلة هي أنني حكيت الكثير فعلاً، حتى صرت لا أذكر أي شيء حكيته .. يبدو أن هناك قصصاً ضاعت للأبد .. ونسيت أنني نسيتها .. كما أن هناك قصصاً مازلت أعتقد للمرة الألف أنني لم أحكها بعد ..

لحظة حتى أراجع مفكرتي .. قصص المسوخ. أعتقد أنني كلمتكم عن (الشيء) ؟ جميل .. قصص القدرات الخارقة .. قصص الطلاسم المغلقة .. لا .. لم أحك قصة (بندورا) .. إنها مناسبة ، ولتكونن هي قصتنا اليوم ..

كم الساعة الآن ؟ الثامنة مساءً .. جميل .. هذا يناسب قصص الرعب التي لم تخلق لتسمع أو تقرأ إلا ليلاً .. هناك من يرغبون في العودة إلى ديارهم في وقت معقول .. هذا طلب مفهوم خاصة بالنسبة للآنسات الصغيرات .. سأحاول أن أكون مختصراً وأن أنهي القصة قبل العاشرة مساءً ..

هل من شروط أخرى ؟

نعم .. أعرف أن صوتي خفيض .. إنها أسباب صحية لا دخل لي فيها ، لكني سأحاول أن أجعل صوتي مسموعاً ، ولتقتربوا

قليلاً لتجعلوا مهمتى أسهل .. يمكن تضييق هذه الدائرة أكثر من هذا ..

ساعدونى أنتم أيضًا بتقليل الهمسات الجانبية .. لاتصدقون ما أقول ؟ لكن .. كيف أبرهن على أننى صادق ؟ لاتوجد طريقة على ما أعتقد ، لكن دعونا لانأخذ الأمر على طريقة محققى الشرطة أو محاكم التفتيش .. هل حدث هذا أم لم يحدث ؟ هل تشرق الشمس من الشرق أم الغرب ؟

ليست الحقيقة هى كل ماتريد .. بل الخيال وربما الاستمتاع .. دع خيالك يقم بالمهمة ، وتخل عن تحفظاتك المسبقة ..

هل من شىء آخر لم نقله ؟

نعم .. صوت الخطوات خارج الغرفة شىء معتاد ولايجب أن يقلقكم .. المخضرمون منكم ألفوه ولم يعودوا يتساءلون .. اعتبروه نوعًا من الموسيقا التصويرية التى تلعب دور الخلفية لكلامى ..

ولكن .. إنها الثامنة والربع .. إننا نضيع الوقت الثمين فى كلام لاطائل من ورائه ..

تعالوا نبدأ حالاً ..

كانت قصتى مع صندوق (بندورا) كما يلى ...

1 ـ بلــدة ما ..

لم يكن الأمر صعبًا ..

ليس صعبًا على الإطلاق ..

فى القرون الغابرة ، كان عليك أن ترى النظرة فى عينى خصمك .. ربما تحوى الرعب ، وهذا بالتأكيد يجعل الأمر أصعب .. ربما يتوسل إليك وهذا يجعل الأمور أصعب فأصعب .. كان عليك أن تلتحم بـه جسديًا .. كان عليك أن ترفع النصل عاليًا وتهوى به ، عالمًا ما سيحدث بالضبط .. تعداد البشر قل واحدًا .. هناك شرايين وأوردة وأعصاب لن تؤدى عملها للأبد ..

رباه! الحقيقة أن الحروب الشجاعة هى التى مضى عهدها .. أما اليوم فقد صارت الأمور أسهل ..

طيار فى مقعده المريح فوق السحاب يرى الأرض كخارطة لا أكثر .. يضغط الزر وينتهى الأمر ويعود .. لا وقت للتفكير فى شىء .. كل ما يهمه أن يكون دقيقًا وألا يخطئ الهدف .. كأنه يلعب لعبة فيديو ما ..

حتى مع مستوى أقل من التقنية ـ كما هو الحال الآن ـ يظل الأمر سهلاً ..

كل ما عليه هو أن يجذب السلك إلى نهايته .. يخفي العبوة في موضع ما تحت البناية .. يتوارى بعيدًا ..

* * *

إنه العام 1976 .. لقد خرج العالم من مرحلة صراعات عنيفة .. التقارب بين الولايات المتحدة والصين .. انتهت ثورة الشباب لأن حرب فيتنام انتهت .. (نيكسون Nixon) قد ترك البيت الأبيض من عامين بعد فضيحة (ووترجيت Watergate) .. الصراع العربي الإسرائيلي ـ كما حسبوا وقتها ـ يقترب من نهايته ..

لكن هذه البلدة اليونانية الهادئة لا تعرف شيئًا عما يدور خارجها .. إنها عبارة عن بركة ماء لا يحدث شيء على سطحها .. وما يحدث لا يدوم .. هل نذكر اسمها ؟ لا داعي لذلك حتى لا نتحمل بعلم لا ينفع .. كفانا أنه بعد ساعات لن يكون لها وجود على الخارطة ..

أحيانًا يجلس القوم في الحانة يتبادلون النميمة .. ربما يتحدثون عن الزوجات ، وكل الزوجات شريرات مخبولات في نظر هؤلاء القوم .. ربما يناقشون السياسة لكن آراءهم في السياسة حمقاء ساذجة .. ترى هل من الحكمة أن تعود

اليونان ثانية إلى حلف الناتو Nato ؟ ترى هل كان الحكم العسكري بقيادة (جيزيكيس Gizikis) أفضل مما يجري الآن مع حكومة (كرامنليس Karamanlis) المدنية ؟

ما رأيك في إجابة هذه الأسئلة ؟ لا تعرف ؟ قل أي رأي ولسوف يكن أكثر عمقًا وواقعية من آراء هؤلاء القوم ..

يقول أحدهم وهو يمد كأسه للساقي :

ـ « الحكم العسكري يمتاز بالحزم .. وهذا هو ما تحتاجه الشخصية اليونانية . الحزم .. الوالي العثماني العجوز كان يعرف كيف يعامل هؤلاء .. دع هامش ديمقراطية لليوناني ولسوف يمزقك في أية فرصة .. »

في هذه اللحظة كان (ميخائيل مندوريس) منهمكًا في بيته .

كان يحشو الخراطيش المصنوعة من الورق المقوى لبندقية الصيد الخاصة به .. لماذا يفعل ذلك ؟ ليقتل طبعًا .. ظننت هذا مفهومًا .. يقتل من ؟ لا أعرف طبعًا .. ظننت هذا مفهومًا .. هو كذلك لا يعرف .. كان هناك وجه واحد كريه يتوارى خلف الضباب ولا يمكن تبين ملامحه .. لكنه مقيت كالوباء ..

هذا الوجه يجب أن يموت .. يجب أن تطلق النار على زحام الناس .. لايهم من يموت ومن يحيا .. المهم أن ذلك الوجه الشرير سوف يزول من على الأرض ..

أين يوجد أكبر عدد من الرجال فى هذه الليلة ؟ فى الحانة طبعًا .. يشاهدون إحدى المباريات على الشاشة الصغيرة ويثرثرون ..

غدًا قداس الأحد ، ولسوف يكون هناك عدد أكبر بالإضافة للنساء والأطفال .. لكنه لايجرؤ بالطبع على تدنيس الكنيسة بالدم .. سيفعلها هنا والآن ..

* * *

ترتجف (تابيثا) من فرط الحمى ..

وللمرة الثانية يعد د. (فلسيلادس) النبض .. إنه بطىء وهذا يضع الحمى ضمن مجموعة محدودة جدًا من الأسباب ، لكن الفتاة لاتستجيب لأى علاج ..

دنت الأم منه ووضعت المنشفة على جبين الطفلة ، وهمست :

ـ « أتراه التيفويد Typhoid يا دكتور ؟ »

لحنقه هذا .. كأنه لم يفكر فى تلك الحمى ألف مرة ، ويحقن الطفلة بجرعات عدة (إبريقية) من الكلورامفنيكول Chloramphenicol .. وتذكر ساخرًا ولادة أجراها منذ أعوام ، كانت تلميذة تمريض مراهقة تقف جواره .. إذ برز الرأس هتفت الأم المنهكة : ولد أم بنت يا دكتور ؟

قال وهو يواصل التوليد :

ـ « لا أعرف بعد .. »

هنا قالت طالبة التمريض فى حماس :

ـ « لو سمحت لى أن ألقى نظرة لأخبرتك .. فأنا أعرف هذه الأمور ! »

هكذا تتوقع الأم بهذه العبارة أن تدق جرسًا فى ذاكرته .. عندها يصرخ : التيفويد .! كيف لم أفكر فى هذا ؟ إننى لأحمق حقًا ! ثم يملأ المحقن ويفرغه فى وريد الفتاة فتشفى ..

قال للأم وهو يعد نبض الطفلة من جديد :

ـ « فى الحقيقة لا أعرف .. أعتقد أن السلطات الصحية يجب أن تأتى . »

وما لم يقله لها هو أن حالة الطفلة هي الرابعة من نوعها هذه الليلة بالذات .. إن الأمر يتخذ صورة وبائية لا شك فيها .. هذه هي اللحظة التي يطوي فيها خيامه ويرحل كما يقول الأعرابي ، ويترك المهمة لمن هو أقدر ..

* * *

تشاجرت مع (بالاماس) بعنف هذه الليلة ..

لم يكن الأمر يستأهل كل هذا الصراخ الجنوني ، لكنها فعلتها .. ولكل فعل رد فعل مساو له في المقدار مضاد في الاتجاه .. وقد كان زوجها عنيفاً مثلها وألعن ..

لماذا تشاجرت ؟ طبعاً لا تعرف .. ربما كان القمر المكتمل هو السبب ..

المهم أن البيت صار كتلة من اللهب .. الكراهية تسربت إلى كل ركن فيه وكل شق ..

كان هذا حين شعرت بتلك الوعكة في هذه الليلة بالذات .. تشعر بارتفاع في حرارتها .. وقد قامت بجهد بسيط في التنظيف فوجدت بأن حبيبات العرق نبتت فوق كل موضع من جسدها .. إنها لا تتحمل ملمس الثياب على جلدها ، وحين دنت من شاشة التلفزيون شعرت بأن الكهرباء الإستاتيكية تلسع جلدها بألف دبوس ..

كان (بالاماس) يريد العشاء ..

كالعادة يأتي عصبياً بسبب ضيق الرزق .. وهو يريد العشاء حالاً ..

صاحت في جنون :

ـ « اخرس قليلاً ! أنا أسمعك ! »

كان هذا خطأً قاتلاً ، لأن (بالاماس) نموذج ممتاز للإنسان غير المتحضر .. لا بد أن جده القريب كان يجر جدته من شعرها في كهف ما .. وقد فوجئت به ـ خلال ربع ثانية ـ يقف أمامها والشر يشع من عينيه :

ـ « ماذا قلت ؟ »

بدا لها مبتذلاً بحق .. سخيفاً بحق .. كيف يسمح إنسان لنفسه بأن يطيل سالفيه إلى هذه الدرجة ويعتبر نفسه وسيماً ؟ ثم هو يحاول أن يبدو قوياً .. وطريقته هذه صبيانية خالية من الأصالة ، كأنه يقلد بطل فيلم أعجب به ..

قالت في تحدٍ :

ـ « قلت لك أن تخرس قليلاً .. لو كان الصراخ موهبة ، لكان الحمار أعظم الموهوبين ! »

خلع حزامه كما يفعلون فى مصارعات الأزقة ، ولفه حول قبضته ، وعاد يكرر :

ـ « هلمى .. ماذا قلت ؟ »

هذه المرة كانت مستعدة لأن تمضى إلى نهاية الشوط .. قالت فى مزيد من التحدى :

ـ « أنت سمعتنى مرتين .. لم أسمع عن حمار أصم ، لكنك حققت هذا ! »

عاد يكرر السؤال :

ـ « ماذا قلت ؟ دعنى أسمع ! »

صرخت بأعلى صوت فى حنجرتها :

ـ « اخرس !!! »

* * *

كان الأطفال يلعبون فى حديقة المدرسة ..

لقد خيم الظلام على القرية ، لكنهم كانوا يأتون هنا ليلاً كى يلعبوا ليلة الأحد .. خاصة والمصباح الوحيد الموجود فى غرفة السيد (سماراكيس) المدير يجعل إضاءة المكان مناسبة .. خافتة لكن كل شىء واضح .. أضف لهذا أن القمر مكتمل هذه الليلة بالذات ..

يبدو أن (فاسيليوس) قد هجم على المرمى ، فى اللحظة التى استعد له (إلياس) ابن العاشرة كى يمنعه .. كانت النفوس متوترة والحماس جارفاً .. وهنا اندفعت قدمه فى حذائها الثقيل لتركل ساق حارس المرمى ..

سقط هذا على الأرض يئن بينما انطلقت الكرة كالقذيفة فى الهدف .. لم تكن هناك شباك لكنها اهتزت برغم هذا فى أذهان الكل ووثب (فاسيليوس) فى الهواء مهللاً ..

لكن (أنطونيس) ـ الذى اهتزت شباك فريقه ـ صاح فى غضب :

ـ « أنت ضربت حارس المرمى عمداً قبل أن تصوب الكرة ! »

ـ « لم يحدث .. أنت أعمى ! »

ـ « وأنت كذاب ! »

وهنا نهض حارس المرمى (إلياس) وهو يثب على ساق واحدة :

ـ « هذا ليس هدفاً صحيحاً »

ـ « بل صحيح ! »

ـ « ليس ! »

ـ « صحيح ! »

وسرعان ما التهبت النفوس ، فانقض (فاسيليوس) على (إلياس) .. هب (أنطونيس) يساعد حارس مرماه ، وسرعان ما تحول الملعب إلى كتلة متلاحمة من أجساد الأطفال الذين يتبادلون الركلات والعض والصراخ ..

ومن النافذة ظهر وجه السيد (ساماراكس) .. طبعًا هو عكس النور فلا ترى إلا السلويت الخاص به ..

كان حازمًا ، لكنه كان يفضل أن يترك الصبية يمرحون خارج ساعات الدراسة .. إلا أن ما رآه من النافذة كان يفوق الوصف .. خاصة والصراخ يمزق أعصابه ، وهو لم يتحمل الصراخ فى حياته .. كان يؤمن أن كرة القدم مجرد تنكر لأحط الغرائز السادية البشرية .. فقط كانوا يهللون منذ ألفى عام بينما الأسود تلتهم المسيحيين فى الآرينا Arena .. الآن يهللون بلا أسود .. لكن النتيجة واحدة ..

صاح بأعلى صوته حتى أوشك الوريدان على جانبى رأسه على الانفجار :

ـ « توقفوا!!!!!!!! ! آمركم بهذا !! »

لكن أحدًا لم يبال به أو يسمعه ..

عاد يصرخ وقد ازداد جنونًا :

ـ « قلت لكم توقفوا يا حمقى ! »

لكن الأطفال لم يبالوا به قط .. ولم يكن (ساماراكيس) ممن يطيقون أن يستخف بهم أحد ..

* * *

فى التاسعة مساءً انفجر كل شيء ..

(مندوريس) اقتحم الحانة وسط العيون المذهولة غير الفاهمة ، وراح يطلق النار جزافًا فيسقط من يسقط .. لم يعد أحد يتكلم عن الحكم الملكى ولا الحكومة العسكرية .. لقد تحول كل شيء إلى صرخة عالية مندهشة ..

وفى الوقت ذاته تبادل (بالاماس) وزوجته الطعنات .. يبدو أنها صارت قوية كالثيران البرية بعدما جلدها بالحزام .. وسقط الاثنان خارج الباب المفتوح كأن انفجارًا أطاح بهما ، وقد خشى الجيران أن يلمسوهما لمدة عشر دقائق كاملة ..

بينما أفرغ (ساماراكيس) خزينة مسدسه فى الطلبة الذين يلعبون فى فناء المدرسة ..

هبت ريح عاتية من الغرب .. لكنها قابلت ما أثار شهيتها .. هناك حريق .. حريق فى دار أو دارين .. إنها أيام توزيع البريد الجميلة قد عادت ! كثير من المرح هنا ! وسرعان ما كانت الريح تنقل جذوتها إلى أكثر من بيت ..

فى الوقت نفسه ماتت الصغيرة (تابيثا) وقد اشتدت بها الحمى ..

أما ذروة السيمفونية فكانت عندما أغلق ذلك المعتوه الدائرة الكهربية .. و ...

بووووووم !! دوى الانفجار الرهيب فى الحتة وبناية البلدية والنادى النسائى .. واهتزت البلدة كلها من الرعب أكثر منها بسبب الانفجار ذاته ...

وهوت بقايا الانفجار أرضًا فتلقفتها النيران القادمة من الغرب ...

وفى السماء لم يعد أحد يرى قرص القمر ...

لقد غطى الدخان كل شىء ..

فيما بعد كان هذا القمر المكتمل هو المتهم الرئيسى فى القضية .. إن سلوك الإنسان العدوانى الجنونى يتزايد مع القمر المكتمل .. وهذه حقيقة عرفها العلماء من زمن ..

فيما بعد ـ وكما يحدث عندنا فى مصر ـ قضت الصحف أيامًا عظيمة مع وصف الحدث وتحليله ، وتكلم آلاف علماء النفس والجريمة عن تأثير التلفزيون على الشباب ، وتأثير

الشباب على التلفزيون ، وتأثير عادة حك الأنف على الإرهاصات الأيديولوجية اللاتكية لنظرية (لامبروزو Lombroso) خاصة مع المزيد من الديالكتيك والجشتلط ..

فى النهاية لم يفهم أحد شيئًا ، ولم يعرف أحد شيئًا ، وصار بوسعنا أن نغلق هذا الملف ..

* * *

2- العـــائد ..

كنت ساهرًا أشاهد فيلم (ليلة الموتى الأحياء) للمخـرج المشاغب (جورج روميرو Romero) .. ألم أخبركم ؟ لقد ابتعت جهاز (فيديو) فى وقت كانت فيه هذه الأجهزة نادرة فى مصر، وهو جهاز عجيب يشبه التابوت فى الحجم والشكل والأصوات المنبعثة منه ليلاً .. وكانت شرائط الفيديو وقتها من حجم كبير، حصلت عليها من الخارج مباشرة ..

يقول النقاد السينمائيون إن هذا الفيلم يمثل بـالحرف (كيف تلتهم أمريكا نفسها) .. الموتى يغادرون قبورهم بلا سبب ليأكلوا الأحياء .. هذه فكرة الفيلم أما باقى الفيلم فهو قيامهم بهـذا العمل .. جنون عام وفوضى ومذبحة دموية بلا آخر .. الناجى الوحيد يقتل لأنه بدا لفرق الإنقاذ كأنـه زومبى آخر .. هذا الفيلم ما زال يعرض حتى القرن الواحد والعشرين فى الولايات المتحدة، وأصارحكم القول إنه أثار هلعى(*) .. برغم انسجامى الواضح مع الرعب، فإن الرعب الذى أتحمله وربما أحبه هو رعب (الجو) .. رعب التلميح بالشىء لا إظهاره ..

(*) ليس هذا هو ذات الفيلم الملون الموجود الآن بنفس الاسم .. الفيلم الأصلى إنتاج 1968 .. أبيض وأسود وكئيب جدًا ..

ثم - لحظـة من فضلك - ما الذى يعرفه هذا المخـرج أو سواه عن هذه الأمور ؟ هو لم يضع خمسين عامًا من عمره فى هذا الهراء كما فعلت أنا ..

كنت على كل حـال فى ذروة التوتر مع أحداث الفيلم، حين دق الجرس ..

إنها الثالثة بعد منتصف الليل .. وبما أن (عزت) مسافر فالقادم مسخ .. معادلة بسيطة جدًا أجراها عقلى المكدود، ثم لم ألبث أن عدت إلى صوابى شاعرًا بالخجل ..

هرعت إلى الباب أسأل من الطارق وأنا أعرف أنه لن يجيب، لكنه أجاب ...

إنه (عزت) .. غريب هذا ..

كان (عزت) فى اليونان من عشرة أيام .. يبدو أن هناك مهرجانًا ما يحمل اسمًا على غرار (البينالى العاشر للمحللين المرضى عقليًا) قد دعاه قلبى .. وكـان (عزت) يتمنى أن يتمكن بشكل ما من البقاء فى اليونان بعد المعرض للأبـد .. إن عدد العرب هناك أكثر من اليونـانيين، ويبدو أنـه كان يبحث عن فرصة من التى يبحث عنها ألوف فلا يجدونها ..

الجديد هنا أنه عاد، وأنه لـم يطق صبرًا حتى الصباح كى يرانى ..

رحبت به بحرارة ودعوته للداخل .. أعترف أننى أحب هذا الفتى وأنه من القلائل الذين لا أتضايق لدى رؤيتهم فى أية ساعة من اليوم ..

جلس (عزت) وراح يحكى لى فى مرح عن تلك الأيام هناك .. وهى قصص سئمتها أولاً لأننى رأيت اليونان مرارًا .. ثانيًا لأنها ذات القصص التى يحكيها كل مصرى من الخارج .. لابد من قصة الكاميرا التى نسيها على مقعد الحافلة ، وظلت هناك لم يمسسها أحد بعد تسع سنوات ، وحتى وجدها هو .. لابد من قصة قشور الفستق التى كان يلقيها فى الشارع ، فوجد رجل الشرطة قد جمعها كلها فى قبضته ، وجاء خلفه ليشير فى تهذيب إلى أقرب سلة مهملات .. لابد من صورة أو اثنتين مع شقراء اسمها ـ دائمًا ـ هو (لورا) التى بكت كثيرًا ساعة الرحيل .. طبعًا يتضح فيما بعد أنه لايعرفها ، وأنها كانت تعبر الشارع حين استوقفها وطلب أن تسمح له بهذه الصورة معها ؛ ليراها الحمقى عندنا ..

أحيانًا أحسب أن من يحكون هذه القصص لم يذهبوا لأى مكان ، وإنما ألفوها وهم جالسون على المقهى فى (شبرا) ..

سألته عن انطباعاته عن الآثار اليونانية ، فلم يبد متحمسًا .. قال لى إنه أحضر بعض أشياء لكنها ليست بذات الأهمية ..

ـ « تعنى أنك اشتريت آثارًا إغريقية حقيقية كتذكار ؟ »

ضحك كثيرًا وهتف مصححًا :

ـ « بالطبع لا .. أتكلم عن التذكارات المزيفة .. مثل التماثيل التى تنتجها أية ورشة فى الأقصر .. ألف قطعة فى اليوم .. »

ثم نظر إلى ساعته وهتف :

ـ « الرابعة صباحًا .. وقت مناسب جدًا لزيارتى .. تعال إلى شقتى لترى ما جلبته .. ثمة أشياء تهمك .. »

* * *

بالفعل أنا أحب زيارة الناس فى الرابعة صباحًا ..

كانت شقته فى حال أسوأ من المعتاد طبعًا ، فإن أحدًا لم يعن بها منذ سافر .. دعك من حالتها السيئة قبل سفره أصلاً .. وكانت حقائبه فى كل صوب .. بعضها مفتوح وبعضها مغلق .. ثمة لفافة جريدة مفتوحة بها بقايا شطائر فول وطعمية ابتاعها كعشاء أثناء عودته من المطار ..

رق قلبي لحاله .. هذا قدر من يعيش وحيدًا .. فلا توجد لم عجوز تبكي بحرارة وتعد له أطايب الطعام لدى عودته ، ولا زوجة تغني بحقائبه وتفتش جيوبه بحثًا عن أشياء مريبة ، ولا أطفال يملئون المكان صراخًا .. إنه لشخص مسكين ، إن ...

ثم تذكرت أن هناك واحدًا آخر يعاني الظروف ذاتها ، لكنه اعتاد ألا يرثي لنفسه .. أنا ! ..

راح يريني أشياء وأشياء مما جلبه .. كلها تفاهات على كل حال ..

ثم راح يعرض على طنًا من الصور الفوتوغرافية .. وتوقف أمام صورة له وهو واقف أمام البحر ينظر لعدسة الكاميرا في حزن وتأمل ، وجواره فتاة يونانية شقراء .. وقال متأثرًا :

ـ « لقد ذرفت دمعًا حارًا عندما أخبرتها أنني لن أبقى في اليونان .. »

قلت بلا مبالاة وأنا أنتقل لصورة أخرى :

ـ « إن (لورا) فتاة طيبة .. والآن ماذا عن ... ؟ »

هتف في حيرة :

ـ « اسمها (إيفيتا) .. ولكن لماذا استعملت هذا الاسم ؟ »

تجاهلت إلحاحه وواصلت تفقد الصور ، وفي النهاية تثاءبت وأعلنت أن موعد نومي قد حان ..

ـ « ليس قبل أن تأخذ هديتك .. »

وطبعًا كنت أتوقع ما أحضره .. لم أكن مخطئًا على الإطلاق .. مجلة يونانية سياسية سميكة خالية من الصور تقريبًا ، والأهم أنه لا يوجد فيها حرف بلغة أستطيع فهمها .. أبديت تأثري فأشرق وجهه في سرور :

ـ « أنا أفهمك تمامًا .. ثق بي في هذه النقطة .. »

وهكذا أخذت المجلة شاكرًا ونهضت .. كانت مشكلتي دائمًا هي العثور على ورق جرائد جيد يتشرب الزيت الناتج عن قلي البطاطس دون أن يلوث البطاطس نفسها بالحبر .. لقد حلت مشكلتي أخيرًا ..

قال وهو يودعني على الباب :

ـ « غدًا نذهب لها في الفندق .. »

قلت في دهشة :

ـ « من ؟ »

- « (إيفيتا) طبعًا ! ألم أقل لك إنها فضلت أن تأتى معى إلى مصر ما دمت لن أبقى معها فى اليونان ؟ »

أصابنى الذهول ..

لقد اعتدت أن أكون على صواب فى كل مرة ، حتى صار هذا لا يطاق .. يبدو أننى ألعب دور الأحمق الآن على سبيل التغيير ...

* * *

3- إيفيتا ..

بالطبع يمكن أن أصف لك (إيفيتا) التى كنت أعتقد أنها (لورا) .. لكن هذا تحصيل حاصل .. كل شخص يحمل فى ذهنه تصورًا مثاليًا للجمال خاصًا به وحده ، وهناك أجانب يعلقون جوار سريرهم صورة (مارجريت تاتشر) المرعبة باعتبارها تمثل القدوة الأعلى للجمال ..

الحقيقة أن (إيفيتا) هذه كانت نموذجًا للجمال الذى يقف على الأرض المشتركة بين البشر جميعًا .. هات فلاحًا من وراء تورجه ليراها .. سوف يصرخ فى ذهول (يا بووى !) ويلقى بطاقيته على الأرض .. هات لوردًا من ريف (ويلز Wales) ولسوف يعجز عن الكلام ، ويسقط رماد السيجار على سترته الفاخرة .. سوف يلوح متوحشو أستراليا البدائيون برماحهم ويقذفون البوميرانج Boomerang فى الهواء ، وسوف يشعل الصينيون شموعهم ويدقون الأجراس ، بينما ينيخ الأعرابى ناقته وينظم قصيدة من الشعر (النبطى) تعبر عما يشعر به ..

الحقيقة أن اسم (إيفيتا) ومعناه (حواء) لم يكن اعتباطًا .. لقد كان أبوها يعرف ما يفعله بالضبط حين ذهب لمكتب

الصحة فى (أثينا) .. هذا لو كانت عندهم مكاتب صحة طبعًا ..

أما السؤال المهم هنا فهو : ما الذى وجدته (فينوس) المعاصرة هذه فى (عزت) ؟ ليس السؤال وليد غيرة .. أنتم تعرفوننى بما يكفى .. بل هو وليد فضول لا يمكن فهمه .. من يدرى ؟ ربما كان (عزت) أكثر ظرفًا وموهبة من انطباعى العام عنه ..

على كل حال ـ كما قلت ـ قابلناها فى الفندق الذى قررت الإقامة به على حسابها كى لا تكلف (عزت) مليمًا .. كان التعرف سريعًا ، لأن (عزت) كلمها عنى كثيرًا .. وكانت تجيد الإنجليزية .. وفهمت أنها رسامة . هذا يفسر كيف التقيا على الأقل ..

لم يقلها (عزت) لكننى فهمت أن مشكلته هى الظهور على سائق خصوصى .. وهو دور لا أرحب به طبعًا ، لكننى أقبل القيام به هذا اليوم فقط ..

وهكذا رتبت لها برنامجًا يناسب جدًا شخصًا يريد أن يرى القاهرة فى يوم واحد .. متحف مصرى .. قلعة .. نيل .. أهرام .. برج القاهرة .. ربما يتسع الوقت لخان الخليلى ليلاً ..

طبعًا لم أستمتع بلحظة .. إن التعامل مع هذا الجمال الباهر مشكلة ، فأنا أمقت لفت الأنظار .. تعرفون أننى

تمنى ألا أموت فى الشارع فقط كى أتحاشى زحام الفضوليين .. أما والحال كذلك ، فقد بدا لى أن مظاهرة تمشى وراءنا فى كل مكان ..

وأشفقت على (عزت) .. لا أعرف إن كان يتمنى الزواج منها أم لا ، لكن معرفة فتاة بهذا الجمال يحتاج إلى أن يكون المرء (ستيفن سيجل Seagull) على الأقل ـ لم يكن قد ظهر فى ذلك الوقت ـ من أجل ألف مشاجرة ستنشب بسبب هذا الشاب الوقح أو ذاك .. ليس الأمر بهذه السهولة ، ولربما كان من الأكثر راحة أن تمضى وقتك مع حيوان (ولفرين Wolverine) مهذب أو أى دب قطبى يحترم نفسه ..

وهكذا قررت التخلص منها ـ ومنه على الأرجح ـ فى أول فرصة لا أبدو فيها وقحًا أو نذلاً ..

عندما جاء المساء ودعناها ، وعدنا إلى البناية التى يقطنها كلانا ..

هذه المرة دعانى إلى شقته ، وأعد لنا بعض الشاى المقزز ، ثم قال وهو ينتظر رأيى فى توتر :

ـ « ما رأيك ؟ »

وأنا أعرف أن كلامى فى أغلب الظروف لا يطاق .. لهذا قابلت سؤاله بسؤال آخر :

ـ « المهم رأيك أنت .. ما هى خططك ؟ »

بدا عليه الغباء وقال :

ـ « خطط ؟ هل لابد من خطط ؟ »

ـ « زواج مثلاً يا أحمق .. »

فكر من جديد .. أحياناً أشعر بأنه طفل .. يفاجأ بأشياء غريبة طيلة الوقت .. لكن الأمر ليس بهذه البساطة .. هو كذلك يتمنى أن يتزوج هذا الجمال لكنه يهابه ..

لهذا قررت أن أرفع معنوياته :

ـ « نحن متفقان على أنك مخيف المنظر ، متقدم فى العمر .. يدرك كل من يراك أنك مصاب بمرض عضال .. دعك من أنك لا تستطيع الحياة من دون جرعات (الكورتيزون) هذه .. لكن لابد أن هذه الفتاة قد وجدت فيك ما يروق لها .. أعترف أننى لا أملك عينيها ولا أرى فيك شيئاً خاصاً ، لكن هذه مشكلتها على كل حال لا مشكلتك .. ولا أرى ما يمنع من أن تثق بنفسك برغم أن هذه الثقة لا أساس لها .. »

كان هذا رقيقاً كما ترى ، فأنا أكون فصيحاً معبراً حتى تعد الكلام الرقيق .. وقد دمعت عيناه تأثراً .. إلا أنه أضاف :

ـ « أريد أن أكون بقربها طيلة الوقت ، لكنى لا أملك الشجاعة الكافية كى أحتكرها .. أنت تعرف هذا الشعور .. »

قلت فى نفاد صبر :

ـ « هذا جميل .. فلماذا تركتها تأتى إلى مصر إذن ؟ »

ـ « إنها سائحة .. هذا من حقها .. ستنتهى زيارتها لمصر ثم تعود .. لا مشاكل .. »

بدا لى الأمر عجيباً .. فجأة تقرر اللحاق به فى مصر لتقوم بالسياحة .. ثم يتوقع ـ الأحمق ـ أن تلك الفترة لن تقوى عاطفته نحوها ، ولن تجعله أكثر تشبثاً بها .. لقد كان الفراق عسيراً حين كان فى اليونان .. أما الآن فى مصر فسوف يكون مستحيلاً .. يصدق عليه بيت الشعر الرقيق :

عجبت حين تركتها كيف لم أمت ..

وكيف انثنت بعد الوداع يدى معى ..

على كل حال نجحت ـ بشىء من اللطف ـ فى التملص منهما وعدت أمارس حياتى العادية .. لا أبالغ لو قلت إننى

نسيت هذه القصة تماماً فلم أعد أتذكرها إلا عندما أسمع المفتاح وهو يدور في الباب المقابل لشقتي .. لقد عاد (عزت) ..

* * *

على أن أشهر العسل لا تدوم .. لقد تسربت (إرادة النكد) إلى علاقتهما .. و (إرادة النكد) هذه هي الاختراع العبقري الذي أرغب إضافته باسمي إلى مؤلفات (فرويد Freud) الذي وصف إرادة الموت قبل هذا .. صديقان أو حبيبان راضيان عن الحياة يضحكان .. هنا يتذكر أحدهما ما فعله الآخر من عشرة أشهر .. أنا لا أريد أن ألعب دور (غراب البين) ، لكن كيف سولت لنفسك أن تفعل هذا ؟ ما زلت عاجزاً عن الفهم .. فيرد الآخر في لا مبالاة .. ثم في حدة .. الأمر الذي لا يقنع الأول .. وهكذا .. وسرعان ما يتحول المشهد إلى مصارعة ديكة .. ولأسباب كهذه يقول المصريون بعد ضحك طويل : اللهم اجعله خيراً .. لأنهم يكرهون أن يضحكوا دون إضفاء بعض النكد على الموضوع في النهاية .

كنت أقول إذن إن إرادة النكد لعبة قاسية بين (عزت) والفتاة اليونانية .. وقد أوصلتهما ذات مرة إلى القناطر الخيرية ، فلاحظت أنهما لا يتكلمان تقريباً .. كما لاحظت أن

الفتاة قد اتخذت تعبيراً من (الاشمئناط) مما ألفناه نحن ، وأنها تريد الشجار فلا يمنعها من قضم أذنها إلا أنها لا تستطيع أن تبلغها بأسنانها ..

قلت لنفسي : أول الغيث قطرة .. حزنت من أجل (عزت) ، لكني قدرت أن هذا قد يكون حلاً سعيداً لوضع لا حل له .. شأنه شأن رجل تؤلمه ساقه ثم ذات يوم يفقدها في حادث ! لقد ولت مشاكل الساق والساق نفسها !

ويبدو أن الأمور تصاعدت في الآونة التالية .. لكني لم أحاول التدخل .. لن أتدخل إلا لو طلب مني ذلك ..

جاءني (عزت) ذات يوم في العاشرة مساءً ، وقال :

ـ « أعتقد أن الأمر انتهى عند هذا الحد .. »

لم أندهش كثيراً ، لكني تظاهرت بذلك ، وسألته :

ـ « هل يضايقك أن تتكلم ؟ »

راح يجوب الغرفة في عصبية كنمر حبيس ، ثم أخرج لفافة الملح إياها من جيبه و (سفّ) بعضه .. وهي العادة التي تميز مرضى فشل الغدة فوق الكلوية كما قلت مراراً ، وهكذا صار أكثر قدرة على تحمل الانفعال العصبي والجسدي ..

وقال بصوت مبحوح :

ـ « إنها شابة جميلة .. وهى تتوقع أن تجرنى معها إلى ذات المنحنيات الوعرة التى لا تخيف الشباب بينما تخيفنى أنا .. طفل شقى يرغب فى تجريب أرجوحة خطرة .. وهو مصر على أن يجربها وأن يصحب معه أباه المصاب بارتفاع ضغط الدم وضيق شرايين القلب .. الأب لا يريد تجربة الأرجوحة .. وكذلك لا يريد أن يجرب ابنه هذه الأرجوحة الخطرة وحده .. »

سألته وأنا ألوك ما بقى من عشاء فى طبقى :

ـ « هل تعنى أنها أخذتك إلى الملاهى ؟ »

ـ « أتحدث بلغة المجاز يا (رفعت) .. هى تريد أن تجرى فى الشارع وأنا لا أجرؤ .. هى تريد أن تغطس تحت الماء وأنا لا أتحمل رؤيته .. هى تريد أن تذهب ـ بلا مال ـ لترى العالم وأنا لا أعرف موضعًا أبعد من الإسكندرية ولا أنوى ذلك .. قس على هذا كل شىء .. والنتيجة أننى أصحو من النوم لأقول : لا .. حتى المساء .. »

طبعًا هذه التفاصيل متوقعة جدًا .. إن حالته فريدة هى خليط من حب كهل لفتاة صغيرة .. وحب شرقى لغربية .. وقد اعتدت أن أبحث عن التكافؤ فى أى شىء فى العالم .. لا تكافؤ .. آسف .. لا أتوقع أى نجاح ..

سألته وأنا أحمل الطبق إلى المطبخ :

ـ « هل هناك شىء أفعله ؟ أنا لا أملك حلولاً لكن لو طلبت شيئًا لفعلته بشكل آلى .. »

قال فى ضيق :

ـ « لا .. أنا أمارس نوعًا من (الفضفضة) لا أكثر .. »

ـ « حسن .. أنت قلت إنها ستعود لبلادها وينتهى الأمر .. متى يأتى هذا الموعد السعيد ؟ »

ـ « لا أعرف .. لقد مددت فترة إقامتها .. لاحظ أنها لا تكلفنى مالاً ، إنها تتولى نفقاتها بنفسها .. »

قلت له وأنا أملأ براد الشاى :

ـ « لكن .. إذن حاول أن تبقى بعيدًا لفترة .. هكذا لن تحدث مشاكل جديدة إلى أن يقضى الله أمرًا كان مفعولاً .. »

وافق على مضض .. لم يكن بوسعه شىء ..

ومرت ثلاثة أيام أخرى ، ثم عرفت أن (إيفيتا) عائدة لبلادها ..

فركت عينى فى دهشة ، وقد تذكرت القصة من جديد .. ألم تعد بعد ؟ على كل حال لقد حان الوقت لهذا البائس (عزت) كى يكف عن الصراع النفسى قليلاً .. حان الوقت كى يستقر ويعود لصنع تلك الأشكال المخيفة التى يصنعها ..

سوف يتعافى (عزت) سريعًا .. ربما أسرع مما أتوقع ، وقد احترمته لهذا .. أحب القوم الذين لا يعتبرون مشاكلهم نهاية العالم ، ويتوقعون أن يحدث كسوف شمسى أو جفاف أو أن يزحف التصحر إلى شمال إفريقيا ، لمجرد أنهم يشعرون بإحباط عاطفى ..

سوف يسهر كثيرًا جدًا ويأكل من شطائر (الطعمية) ، ويشرب أكوابًا عديدة من الشاى الساخن الثقيل .. ولسوف يصاب بقرحة معدية فيعتقد أن الآلام التى يشعر بها هى (آلام الفؤاد وتباريح الهوى) .. ثم لا يلبث أن يشفى من هذا كله فيشعر بالرضا عن الحياة ..

لكنه سيكون على ما يرام .. حتمًا سيكون على ما يرام ..

* * *

حسن .. لم تكن هذه النهاية .. ولا حتى بداية النهاية كما كان يقول الخواجه (تشرشل Churchill) للبريطانيين الذين ظنوا أن الحرب العالمية الثانية انتهت فى (العلمين) ، فقرر أن يصيبهم ببعض الاكتئاب ..

كانت نهاية البداية ...

* * *

4- هدية متأخرة ..

لا أنكر أننى تضايقت نوعًا لكونها سترحل دون كلمة شكر أو لفظة وداع .. من الطبيعى أن تتوقع أنك تركت فى نفس الناس شيئًا أكبر من كونك مجرد سائق خصوصى .. لكنى على كل حال قدرت أنها متضايقة ، والظرف لا يسمح بالمزيد من المجاملات ..

إلا إنها لم تنسنى كما ظننت ..

لقد جاءنى (عزت) فى السابعة مساء ، وقال :

ـ « إنها عندى .. وهى تريد أن تودعك قبل أن ترحل »

لا أنكر أننى تأثرت لهذه اللمحة من الرقة .. وارتديت ثيابى مسرعًا ثم اتجهت إلى شقة (عزت) .. كان الباب مفتوحًا ، وثمة فوضى عامة .. على قدر علمى هذه أول مرة ترى فيها الفتاة البائسة مخزن الخردة هذا ، وقدرت أنها بعد ما رأته لن تفكر مرة أخرى فى الموضوع . من الصعب أن يتزوج المرء خرتيتًا حتى لو هام به حبًا ..

كل شىء يوحى باستعدادات الرحيل ، لكن حقائبها لم تكن معها طبعًا .. كانت فى سيارة تنتظر على باب البناية ..

ترى علام اتفقا ؟ يبدو من الجو العام للمشهد أنهما اتفقا على الفراق كصديقين متحضرين ..

كانت تقف هناك في ذروة أناقتها وفتنتها .. وأشرق وجهها حين رأتني ، فقلت لها بتهذيب :

ـ « فقط آمل أن تكوني قد أحببت مصر .. »

قالت في مرح :

ـ « بلاد رائعة .. إن العلاقة الغامضة التي تربط اليونان بمصر لا يمكن فهمها أو تفسيرها .. لست أول من قال هذا .. الإسكندر الأكبر Alexander شعر بهذا من عدة قرون .. لا أعرف إن كنت رأيت اليونان يا د. (رفعت) من قبل ، لكني أتمنى لو رددت لك المجاملة يومًا ما .. »

كنت أحفظ اليونان حجرًا حجرًا .. لكن ذكرياتي هناك لم تكن باسمة إلى هذا الحد ..

أشارت إلى حقيبة من البلاستيك موضوعة على منضدة ، وقالت في مرح :

ـ « لما كنت أنت مهتمًا بالأسرار إلى هذا الحد ، وقد كلمني (عزت) عنك كثيرًا ، فإنني أحضرت لك هدية صغيرة .. »

شعرت بحرج .. لا يبدو أن هذه الحقيبة تحوي بقية أعداد المجلة السياسية اليونانية إياها .. هذه هدية لها طول وعرض وارتفاع .. هدية تشغل حيزًا من الفراغ .. لهذا رحت أردد كلمات على غرار (آ .. هم .. أمس .. لا ..) ..

قالت بلهجة عملية :

ـ « المشكلة هي أنني لا أعرف محتواها ولا أستطيع أن أقطع برأي .. »

هدية لا تعرف محتواها ؟ ما معنى هذا ؟ لقد بدأ عهد المقالب الطفولية إذن ..

مدت يدها في الحقيبة البلاستيكية ، وأخرجت صندوقًا معدنيًا .. صندوقًا أعتقد أنه ثمين وأنه أثري .. هل تعرف تلك (البونبونيرة) السخيفة التي تجدها في صالون كل بيت مصري ، والتي تمتلئ بالبونبون اللزج كريه المذاق ؟ هلم .. لا بد أنك تعرفها .. يوشك الأمر أن يصير نوعًا من مكملات طقوس الزواج ، وكأن الزواج لا يصير شرعيًا إلا بعد شراء هذه التحفة القبيحة .. كان هذا الصندوق يماثلها في الحجم ..

قالت لي وهي تضع الصندوق على المنضدة :

ـ « هذه جئت بها من اليونان .. »

سألتها في شغف :

ـ « هل هي أصلية ؟ »

ـ « لا أعرف .. »

ـ « وأين وجدتها ؟ »

ـ « هذه قصة تطول .. »

ـ «ولا تعرفين محتواها ؟ »

ضحكت في دلال وقالت وهي تربت على المعدن :

ـ « لا أعرف .. إن لها طريقة للفتح لا أعرفها .. هناك احتمالات لا بأس بها لما يمكن أن تجده بالداخل : مجوهرات .. ذهب .. يورانيوم 235 .. عقرب .. ورقة تقول لك : عليك واحد Gotcha .. أي شيء .. ربما لا تجد إلا الفراغ المخيف .. ربما تجد اللعنات أو سعادة البشرية .. لا أدري .. المهم أن تتمكن من فتحه »

بدا لي الموقف غريبًا .. لكني تذكرت مزادات مماثلة تقام في الخارج على تلك الصناديق التي لا يستطيع أحد فتحها .. ربما تجد صرصورًا أو جثة متعفنة أو حفنة من الماس .. هنا يتم بيع سلعة مهمة وحيوية هي الفضول البشري ...

هذا لون من المقامرة يشبه ما يقوم به طفل يبتاع عدة أكياس من ذات الحلوى ، بحثًا عن بطاقة تتيح له كسب دراجة .. هناك لون من القمار المستتر لا يبدو كذلك ، وأنا أعتبره النوع الأخطر .. ومن يروج هذا النوع من القمار لا يختلف كثيرًا عن ذلك الوغد رفيع الشارب الذي نراه في أفلامنا العربية ، والذي يقف على المائدة الخضراء ، ولا يكف عن ترديد : باردون يا إكسلنس ..

على كل حال أنا لم أدفع مليمًا في هذه الهدية ، لهذا سأقبلها ..

قلت لها وأنا أحمل الصندوق :

ـ « هدية مقبولة . سأرى ما بوسعي أن أفعله .. »

لكني قدرت أن الصندوق خال على الأرجح .. ليس ثقيلاً على الإطلاق ما عدا ثقل المعدن ذاته ..

قالت في دلال وهي تمد لي أطراف أناملها :

ـ « شكرًا على كل شيء .. »

ونظرت لساعتها وقالت لـ (عزت) :

ـ « حان الوقت .. »

هكذا أعلنت أنني سأعود لشقتي ، وحملت غنيمتي التي لا أعرف كنهها وتركت العاشقين اللذين صارا صديقين ، وأغلقت بابي ..

بعد دقيقتين سمعت صوت سيارة تنطلق .. تسقط في المطب الشهير الذي صار من معالم شارعي ، فهشم مساعدًا أو اثنين كالعادة .. ثم تواصل طريقها نحو اليونان .. معذرة .. نحو المطار ..

* * *

في البدء وضعت الصندوق على المنضدة في صالة داري .. أنتم تعرفون تلك المجموعة المرعبة من تماثيل (الزولو Zulu) التي لا أجد الشجاعة كي ألقيها في القمامة .. لكنها تبث الرعب في قلب كل إنسان يراها حتى أنا نفسي .. ذات مرة تلقى الأديب العظيم (تشيكوف Chekhov) هدية مماثلة هي تمثال كلب مخيف بارتفاع الإنسان .. وكانت هذه الهدية تثير الهلع في نفسه كلما نسي وجودها لفترة ، لكن قلبه لم يطاوعه قط على التخلص منها ..

المهم أنني وضعت الصندوق هناك وجلست أتأمله في ضوء الصالة الأبيض ..

لا أفهم أنواع المعادن ، لكنه صنع من مادة ثقيلة .. وإن عاش حياة صاخبة كما يبدو لأن هناك نقوشًا زالت تمامًا مع الزمن ، كما أن هناك كتابة يونانية لا يمكن استخلاص شيء منها ، والكثير جدًا من السحجات والانبعاجات كأنه تلقى ضربات لا بأس بها بمطرقة ..

ولكن كيف يفتح هذا الشيء ؟

هناك ثقب مفتاح لكن المفتاح ليس معي .. إذن لا جدوى من المحاولات الغبية .. في الصباح سآخذه لمن يغتصبه اغتصابًا .. أعتقد أن هناك حدادًا مناسبًا في ...

هذا الصوت ؟

أصخت السمع فلم يحدث شيء .. خيل لي أن صوتًا يأتي من ناحية الصندوق ، لكنك تعرف ألاعيب الصوت هذه .. حين تركز على شيء ويأتي صوت من الشارع ، فتتخيل كأنه يأتي من الشيء ذاته ..

هناك قطة تعوي في الشارع .. هذا كل شيء .. صوت (داووووود) الجنائزي يتردد لكن لا أحد يلبي ..

وهكذا نسيت كل شيء عن الصندوق ، وعدت أمارس طقوس حياتي ..

* * *

عاد صوت الأنين والعواء يتكرر عند منتصف الليل ..

هذه المرة لم يكن في الصوت أي شيء من (داوود) .. ولهذا قررت أن ألقي نظرة أقرب ..

إنه من خارج الشقة ..

فتحت الباب ووقفت أصغي ..

هو آت من شقة (عزت) .. انتصب الشعر الباقي على جانبي رأسي .. هذا الصوت لا يوحي إلا بشيء مقبض رهيب ..

هكذا جريت ودققت بابه .. ووقفت أحاول أن أستجمع دقات قلبي التي تبعثرت ..

انفتح الباب فرأيته .. هذه المرة فهمت كل شيء .. عندما يحزن (عزت) فإنه لا يتأثر أو تدمع عيناه كباقي البشر ، ولكنه ينفجر في عواء مريع كاد يقتلني رعبًا .. عواء لا يستطيع ذئب أشهب أن يطلقه فوق قبر في صحراء (موهافي Mojave) .. وهكذا دخلت ورحت أهدئ من روعه :

ـ « اخرس قليلاً .. يا لك من أحمق ! أنت معتوه تمامًا .. كنت أعتقد أن عقلك تعدى خمس السنوات لكن .. ولكن ..

لا تنكر أنها رائعة وأنك فقدت الكثير .. فقدت كل شيء في الواقع ولكن يجب أن .. »

يبدو أنه تماسك فترة طويلة منذ عاد من المطار ، ثم رأى الحقيقة فجأة .. إنه وحيد منبوذ تنتظره أعوام طويلة من الوحدة .. لا شيء يؤنسه إلا تماثيله العجيبة وجاره غريب الأطوار .. هنا فقط انفجر ..

قال من بين دموعه التي تسيل من كل فتحات وجهه :

ـ « كانت تحبني .. لم تتبين هذا معي ؟ لو أنني كنت أكثر مرونة أو ربما هي .. لربما لو ظللت في اليونان إلى الأبد .. هل ترى هذا معي ؟ أنت صديق عزيز .. بالفعل أنت صديق عزيز وإنني لسعيد الحظ أن .. »

كنت أعرف هذه الأعراض .. انفجار عاطفي .. عندها تختلط الأمور .. هو يحبها بجنون .. أنا صديق عزيز .. الحياة رائعة . الناس طيبون .. ثم .. لا .. الحياة قاسية .. أريد أن أموت .. إلخ ...

هكذا ظللت معه حتى غسل وجهه ووعد بأن يهدأ قليلاً .. سينام مبكرًا اليوم .. كلا .. لن يفكر في هذه الأمور .. لن يقتل نفسه برغم أن كل شيء متاح هنا ..

هل أمضى الليلة هنا ؟ ربما كان على أن أراقبه جيدًا فأنا لا أثق بالأشخاص المسرفين فى عواطفهم .. إنهم يفعلون أى شىء فى أى وقت ..

لكنه أصر على أن أستريح فى دارى ، وهكذا غادرته آسفًا .. إن السعادة معنى مراوغ لا يمكن الإمساك به .. قبل أن يقابلها كانت حياته أكثر سعادة وهدوءًا .. الآن رأى لمحة من العالم الذى كان يمكن أن يكون له لو لم يكن سيئ الحظ .. هذا جعل الحياة الهادئة السابقة وهمًا .. لن أكف عن تذكر كلمة (ألبير كامو Camus) عن مشكلة الحياة .. ليس كونها سيئة لا تطاق ، بل إنه كان من الممكن أن تكون أفضل بكثير وكان هذا بأيدينا ..

لا أعرف السبب .. لكنى حين دخلت دارى جلست لفترة لا بأس بها أتأمل الصندوق الغريب .. ثم إننى أحضرت قلمًا وورقة ورحت أحاول باستخدام مؤخرة القلم ، نسخ بعض النقوش التى بقيت عليه . هذا عسير لأنه لا توجد كلمة واحدة كاملة ، لكنى حاولت أن أكون أمينًا قدر الإمكان .

هذا الصوت ...

ألصقت أذنى بالصندوق .. للمرة الثانية أنا متأكد من أنه صامت كالقبر .. لكن القبر يصدر أصواتًا فى قصص الرعب كلها ، وأنا اعتدت أن حياتى كلها قصة رعب طويلة ..

اتجهت إلى غرفة النوم وأخرجت حقيبتى الطبية .. أخذت السماع الحساس ، ودسست طرفيه فى أذنى .. عدت إلى الصندوق وألصقت الغشاء المتذبذب Diaphragm بالصندوق ورحت أصغى ...

كان هذا أغرب شعور خبرته فى حياتى .. لا أستطيع أن أقسم على وجود صوت أمام أية محكمة فى العالم ، وبرغم هذا لا أستطيع أن أنفى الأمر بقلب سليم ..

هذه درجة معينة من طول الموجة أو ترددها تجعل الصوت صاخبًا كالانفجار ، وفى الوقت ذاته لا وجود له .. هل يوجد شىء كهذا إلا فى الهلاوس ؟ لو كان هنا كلب يحترم نفسه لعرف الحقيقة يقينًا ، لكنى لست كلبًا ولا أسمح لأحد بأن يتهمنى بذلك ..

لقد بدأت أشعر بأننى لا أحب هذا الصندوق كثيرًا ..

لا أعرف ما فيه ، لكنى سأحاول التخلص منه فى الصباح ..

* * *

5- فلنفتح هذا الشىء ..

إنه الصباح ..

لا تحدثنى عن الصندوق من فضلك ، فعندى ألف مشكلة ليس بينها مكان للصناديق المغلقة التى تتركها فتيات باحثات عن التسلية ..

على أننى لم أنس برغم كل شىء أن أطلب صديقًا قديمًا هو د. (رمزى) .. أنتم تذكرونه بالتأكيد .. خبير المصريات المتحمس الذى يظهر كلما ظهرت مومياوات غاضبة .. لماذا هو بالذات ؟ لأنه الشخص الوحيد فى ذهنى الذى يملك خلفية عن اللغة اليونانية .. أنا أتكلمها إلى حد ما ، لكنى لا أجيدها ولا أجيد قراءتها .. د. (رمزى) لم يطالب بتعلم اليونانية ، لكنه شعر بأنها مفتاح مهم لعلم الآثار .. خاصة أن مصر عرفت اليونانيين لفترة طويلة جدًا من تاريخها .. (كليوباترا) نفسها يونانية الأصل ..

المهم أننى اتصلت به كما قلت ، ووعدته فى كسل بأن أريه الورقة التى نسختها ، فسألنى فى خمول عن السبب ، فقلت له فى تراخ أن هناك شيئًا ما .. فقال لى ... لا .. لقد أنهينا المكالمة قبل أن تسقط على الأرض ...

وفى البيت مررت على (عزت) كى أدفن جثته إذا كان قد مات ، لكنى وجدته حيًا .. وقد جلس فى حزن يلتهم طبقًا مليئًا بالفول والزيت - لاحظ أنه استيقظ من نومه حالاً - وجواره عدد من أرغفة الخبز واللفت المخلل .. يلتهم هذا كله فى حزن مرهف شفاف ..

شكرنى على ما قمت به من أجله أمس ، ثم سألنى عن محتوى الصندوق ، فقلت :

- « ليس بعد .. »

قال باسمًا :

- « أعتقد أنها أعدت لك مقلبًا ما .. فهى تحب العبث ولها عقل ثعلب .. »

ثم غلبه التأثر وقد تذكرها من جديد .. وهكذا راح يغرق أحزانه فى المزيد من الفول والزيت ..

لم تكن عندى مشاكل فى الغذاء لهذا اليوم ، لأننى أحتفظ ببقايا وجبة أمس فى الثلاجة .. فلن يبقى أمامى إلا الاستعداد وتسخين بعض الآنية ..

وهكذا وجدت أن الوقت مبكر نسبيًا - الثالثة بعد الظهر -

وأنا قد أنهيت جدول مسئولياتى لهذا اليوم .. قررت أن أدرس ذلك الصندوق قليلاً .. كنت قد أزمعت أن أجرب فتحه مع حداد .. لم لا أفعل ذلك الآن ؟

* * *

لا أعرف فعلاً ماتنتجه ورشة الحاج (عبد القوى) .. برغم معرفتى له منذ أعوام لا أفهم نوع النشاط البشرى الذى يقوم به .. سوف تدخل الورشة لتجد سنداناً وكيراً وعدة عمال أسود كل شىء فيهم حتى بياض عيونهم .. الجدران لا لون لها .. هناك ألف قطعة حديدية .. أقفال .. أجزاء من سيارات .. صواميل لا حصر لها .. جنازير .. الخلاصة أنه يمكنك افتراض أن هذه ورشة مما ينتج المتفجرات التى كانوا يقتلون بها الإنجليز فى أيام الاحتلال .. أو هى ورشة تنتج مستلزمات مواجهة التنين أو غزاة الفضاء .. ولن تندهش لو خرجت عربة قطار محملة بالفحم من أى ركن ...

أما الحاج نفسه فرجل مسن قوى البنيان ، له عين تلف سوادها من شظية حديد أصابتها يوماً ما .. فيما عدا هذا كل شىء فيه أسود حتى الأسنان ، وهو جالس منذ ثلاثين عاماً على ذات المقعد يشرب نفس كوب الشاى ويدخن ذات (المعسل) ، ويلقى نظرات خبيرة من حين لآخر على قطعة معدنية يجلبها له عامل شاب .. فيقول :

ـ « لا بأس يا (على) .. لكن أعطها (الرجلاش) الخاص بها .. »

ولى ثلاثون عاماً أحاول فهم هذا (الرجلاش) دون جدوى لكن (على) ينصرف ليعطيها إياه ..

طلبى اليوم بسيط جداً :

ـ « أريد فتح هذا الصندوق يا حاج .. »

أمسك بالصندوق بيده الغليظة العملاقة وتحسسه كأنه بطيخة ، ثم قال :

ـ « يبدو ثميناً يا دكتور .. خسارة .. لماذا لا تجرب صنع مفتاح له ؟ »

ـ « فات أوان ذلك .. »

هكذا أعطى الصندوق لأحد الغلمان وأمره أن يفتحه بأقل قدر من الضرر ، وكان واضحاً على وجه الغلام أنه غير قادر على هذه المهمة : عدم إحداث ضرر .. لقد حمل عدداً هائلاً من الأدوات الفولاذية الثقيلة ، وثبت الصندوق بين شقى (ملزمة) عملاقة وراح يسدد ضربات عنيفة إلى موضع القفل ...

كلنج ! بوم ! كلنج ! بوم !

ضوضاء تصم الأذنين فعلاً .. لكنى قدرت أن الأمر سينتهى سريعًا .. نحن لانقتحم خزينة مصرف على كل حال ..

راح الحاج يعد رزمة لابأس بها من أوراق النقد ، ثم صاح دون أن ينظر :

ـ « هل انتهيت يا ولد ؟ »

ـ « لحظة يا أسطى .. لقد .. »

الآن كان قد أولج (رزة) معدنية تحت الغطاء ، وهى تسمح بفتح شق صغير جداً ، لكن كان عليه أن يطرق عليها بقوة حتى يستسلم الغطاء ..

صاح الحاج (عبد القوى) وهو يضع النقود فى جيبه بعصبية :

ـ « يالك من غلام أحمق .. أنت لست رجلاً .. أنت فتاة تتظاهر بالرجولة .. إن ... »

وانطلقت بعض شتائم مهينة للغاية تتعلق بالأب والأم .. أعتقد أن هذه من أصول التدريب على الخشونة هنا ، لكنى لم أتحملها .. ثم إن الرجل هادئ بطبعه أقرب إلى البرود ، لهذا لم أفهم سر هذه العصبية المفاجئة ..

صاح الغلام فى وقاحة أجدها مبررة :

ـ « إياك أن تتلفظ بحرف عن أهلى يا ... »

وهنا لحقت بكلماته سبة أكثر بذاءة .. حتى إننى وقفت فى مكانى مندهشًا مما يحدث هنا .. كأن دلواً من الماء المثلج هوى على رأسى .. وقرر الرئيس أن عليه اتخاذ إجراء سريع .. هكذا تمت المعجزة .. للمرة الأولى فى حياتى أرى الحاج ينهض .. وكانت نهضته أسطورية تذكرك بديناصورات (راى هارى هاوزن Ray Hary Haussen) ذات الحركة المتخشبة فى الأفلام القديمة ..

عيناه تتقدان ناراً .. اتجه إلى الغلام وصفعه ثلاث أو أربع صفعات على وجهه ، وهو يردد بلا انقطاع :

ـ « هل ترد على أيها الـ ... ؟ »

كان رد الغلام أكثر عنفًا .. فقد تناول المطرقة التى كان يحملها وانقض بها على الرجل المسن ، وهو يعوى كذئب جريح .. طبعًا لم يصل الموقف إلى هذه الدرجة لأن واحدًا من عمال الورشة اعترض طريقه بساقه فألقاه أرضًا ، ثم انهال عليه بالركلات ..

شاب مفتول العضلات ظهر من مكان آخر ، وانقض على

الثاني .. ويبدو أنه يمت بصلة قربى للغلام .. في الوقت الذي ثار فيه الحاج .. فالتقط كوب الشاي وطوح به فوق المتصارعين ..

في لحظة تحولت الورشة الصبور الراضية برزقها إلى حلبة مصارعة .. ولم يعد أحد يعمل .. وفي الهواء تطايرت قطع الحديد باحثة عن وجه عاثر الحظ تفتك به .. ذكرني المشهد بمشاجرات الحارة في أفلامنا العربية القديمة ، حين ينهض الجميع فجأة بلا سبب ليحطموا المقاعد على رءوس بعضهم ..

ومن مكان ما حدث ماس كهربائي ، فاندلع شلال من الشرر يكاد يحرق ما حوله ، وتنبه أحد العمال فركض ليغلق رافعة التيار الكهربائي ..

صحت وأنا أتمسك بكتفي الحاج (عبد القوي) ، وهو يتقدم ويجرني معه .. كأنني بالفعل أتعلق بديناصور جريح :

ـ « كفى يا حاج .. صل على رسول الله .. قل لصبيانك أن يتوقفوا قبل أن يقتل أحد ! »

نظر لي بعينين تتقدان شرراً ثم أمسكني من كتف البذلة .. لم أتعود هذا الاعتداء على حدود نطاقي المغناطيسي ، وقد أشعرني هذا بذعر لا حد له ، لكنه قال من بين أسنانه :

ـ « ابتعد عن هنا .. إن هذه أمور لاتخصك .. هذه ورشتي وأحكمها كما أشاء .. »

ثم اتجه إلى (المنزمة) وفك الصندوق المثبت فيها وانتزع الرزة وقال :

ـ « وخذ هذا الصندوق المنحوس معك .. »

أمسكت بالصندوق بين يدي .. هنا وجدت أنه هدأ قليلاً ـ الحاج لا الصندوق ـ مسح بكفه الخشنة وجهه المبلل بالعرق وغمغم :

ـ « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. أي جنون أصابنا ؟! »

نظرت للوراء وأنا أبتعد ، فوجدت أن كل رجال الورشات الأخرى قد جاءوا ليوقفوا القتال ، وكان قد هدأ فعلاً حتى إنني لم أر داعياً لاستدعاء الشرطة كما كنت أنوي .. من الواضح كذلك أنه لاتوجد دماء .. لكن الجروح النفسية غائرة بلا شك ، ولن تشفى بسهولة .. للحظة خرج مارد الكراهية من قمقمه ، ومن الصعب أن تتظاهر بأنه عاد إليه ..

لا ذنب لي فيما حدث ، لكني ابتعدت في خجل حتى تواريت في سيارتي ..

* * *

كان الصندوق سليماً وبحال جيدة ..

لقد ازدادت السحجات عليه ، لكنه سليم ومغلق .. ربما لو انتظرت أكثر لاستطعنا فتحه ..

وقد رحت أقلبه بين يدى .. لا أعرف ما أفعل به حقًا .. قلبى لا يطاوعنى على التخلص منه فى القمامة فربما كان محتواه ثمينًا فعلاً ..

نظرت فى ساعتى .. إن الظلام يدنو بسرعة .. وقدرت أن بوسعى أن أمر على دار د. (رمزى) لاستشارته ، لكننى أولاً أرغب فى شراء بعض الأشياء التى يحتاج إليها البيت .. يمكن أن أتركها فى السيارة وأنا أزور د. (رمزى) ..

كان هناك شارع مقفر به مكان لا بأس به للانتظار أمام بناية .. هناك أوقفت السيارة وترجلت ، ووضعت الصندوق تحت المقعد .. ثم خرجت إلى الشارع الرئيسى حيث كانت تلك البقالة العملاقة .. لم تكن مصر قد عرفت اختراع (السوبر ماركت) بعد .. أشياء كثيرة تغيرت من حينها .. لو سألت ألف شاب عن معنى كلمة (بيتزا) أو (هامبورجر) أو (دونات) أو (تيك أوى Take away) لما عرف الإجابة أكثر من خمسة ، وهؤلاء سافروا إلى الخارج أو لهم ثقافة غربية ما .. برغم هذا أعتقد أن ذلك كان أفضل ..

كانت البقالة مزدحمة ، وقد استغرقت وقتًا لا بأس به حتى شققت طريقى إلى البائع لأفكر فى قائمة لا بأس بها ، ثم كان أن قابلت اثنين أو ثلاثة من الأشخاص الذين لا تقابلهم إلا كل عامين .. وهكذا استغرق الأمر نحو ساعة إلا الربع .. وفى النهاية عدت للسيارة فقط كى أتذكر أنها مفتوحة ..

بعد كل هذا الحرص نسيت الباب مفتوحًا كعادتى .. هكذا لم يحتج إلى أى نوع من العنف كى يفتح الباب ويلقى نظرة .. طبعًا لم يجد فى عجلته شيئًا قابلاً للسرقة إلا الصندوق ..

هكذا أدرت المحرك شاعرًا بحماقتى ..

لقد حل عقلى الشارد المشكلة .. لن أرى الصندوق ثانية .. سوف يفتحه اللص وينتهى الأمر سواء فاز بماسة (كوهينور) أو مجرد صرصور حبيس ..

لكنى برغم كل شىء مررت على د. (رمزى) ..

رحب بى فى حرارة كعادته ، واقتادنى إلى غرفة مكتبه حيث كان منهمكًا فى قراءة بعض المراجع .. وجاءت زوجته (مارى) لترحب بى وسألتنى عن نوع المومياء التى جئت من أجلها ، فقلت بائسًا :

ـ « لا مومياء .. ما لم يحو الصندوق إصبع (كليوباترا) ذاتها .. »

ـ « أى صندوق ؟ »

هكذا قدمت له الورقة التى تمكنت من نسخها .. بدل بعوينته عوينات القراءة ، وراح يحاول مراجعة الحروف والرسوم ثم قال باسمًا :

ـ « فى الحقيقة أنت لا تقدم لى الكثير .. هناك حرف واحد كل ثلاثة أحرف مفقودة .. والنقوش كذلك لا تدل على شىء .. ربما كان هذا الرجل منكوش الشعر ذو اللحية المجعدة (زيوس Zeus) وربما لم يكن .. هل هذا طائر عملاق ؟ ربما .. وربما هى أول مكنسة كهربائية فى التاريخ .. »

ثم طوى الورقة وقال :

ـ « دعها معى بعض الوقت .. لكنى أنصحك بأن تأتينى بالصندوق ذاته .. »

ـ « أما هذا فلا .. لقد سرق منذ نصف ساعة من سيارتى .. »

بدا عليه الغيظ وقال :

ـ « شارد الذهن كالعادة أو سيئ الحظ .. ما علينا .. أعتقد أن القضية انتهت عند هذا الحد .. »

* * *

لا لم تنته عند هذا الحد ...

لقد عاد لى الصندوق ، وكانت لذلك قصة مثيرة ..

* * *

6 ـ وظللنا صامتين .. نفكر ..

قال لى الضابط المناوب وأنا أوقع على الأوراق :

ـ « حظك رائع يا دكتور .. من النادر أن نضبط مسروقات بهذه السرعة .. »

كنت قد عرجت على المخفر فى طريق عودتى من زيارة د. (رمزى) ، بناء على نصيحته لى .. هناك حررت محضرًا وأخبرتهم بصفات السيارة والصندوق وساعة السرقة .. وطبعًا لم أتوقع أن يحدث شىء .. لكنى فعلت ما بوسعى ..

إلا أنهم اتصلوا بى مساء اليوم التالى مباشرة ، وأخبرونى أنهم يعتقدون أنهم ظفروا بالصندوق ..

وهأنذا فى المخفر أرى الصندوق الذى حسبت أنه ضاع للأبد ..

قال لى الضابط المناوب وهو يتحسس الصندوق :

ـ « اسمه (رجب) .. »

ـ « من ؟ »

ـ « اللص طبعًا لا الصندوق .. وهو مجرد شيطان بائس ..

لقد وجد الصندوق أمامه فخطفه ، وهذا يدل على أنه من أسفل عينة اللصوص على الإطلاق .. اتجه به إلى بيت أحد رفاقه العاطلين ، وهناك قضى الرجلان وقتًا سيئًا فى محاولة فتح هذا الشىء بنصلى مطواتين .. يبدو أنهما أوشكا على النجاح حين لعب الشيطان برأسيهما ـ لو كان من الجائز أن تقول هذا عن لصين ـ فاشتبكا فى مشادة حامية .. النتيجة أن (رجب) سدد لصاحبه طعنة فى كتفه .. غير قاتلة طبعًا .. أما صاحبه فسدد له طعنة فى بطنه .. ليست قاتلة برغم كل شىء .. وسمع الجيران الصراخ فأسرعوا إلى الشقة .. ثم استدعوا الشرطة .. هذا الصندوق سرق من سيارة كانت واقفة فى شارع (...) .. فمن عساه صاحبه ؟ من حسن الحظ أنك حررت هذا المحضر »

هنا دخل أحد رجال الشرطة الغرفة ، فقرع الأرض بحذائه الثقيل وأدى التحية .

ـ « سيدى .. بخصوص المتهمين الآخرين .. »

ـ « فيما بعد يا (سعد) .. فيما بعد .. »

ثم نظر لى الضابط باسمًا ، وقال :

ـ « نفس الحادث . »

- « وهل هناك آخرون ؟ »

- « تشاجر الجيران حول ما يجب عمله .. هناك عدة إصابات .. الواقع أن هذا الصندوق قد آذى سارقه وجيرانه كما لو كان قنبلة موقوتة .. »

ثم نظر لى فى فضول بوجهه المتعب الذى لن يدهشه شىء :

- « ماذا بداخل الصندوق يا دكتور ؟ »

قلت فى صدق :

- « لا أعرف يا سيدى .. لنقل إنه ميراث ثقيل ، لكنى بالفعل لا أعرف كيف يمكن فتحه .. أعتقد أنه لابد من تحطيمه .. من الممكن أن يحوى لاشىء أو كل شىء .. »

قال وهو يناولنى الصندوق :

- « تفضل وكن حذرًا فى التعامل معه .. »

وهكذا عاد لى الصندوق بأسرع مما توقعت ..

* * *

على ضوء المصباح الخافت راح د. (رمزى) يتأمل الصندوق .. يديره فى يده مرارًا ..

بدا مبهورًا متلاحق الأنفاس ، وإن لم يتكلم .. يلعب دور الطبيب الذى يفحصك وتتسع عيناه ويحمر وجهه .. ينظر فى وجهك قلقًا .. ثم يواصل الفحص .. كل هذا دون أن ينطق حرفًا ..

قلت له باسمًا :

- « خيرًا يا دكتور ؟ »

قال دون أن ينظر لى :

- « إنه .. إنه .. أصلى .. لا أعرف ما يحويه لكن خبرتى لا تخطئ .. هذا الصندوق أصيل وربما يشكل ثروة صغيرة .. كنت أتوقع دعابة سخيفة .. مجرد تقليد متقن .. لكنى أعرف الشىء الحقيقى حين أراه .. »

ثم راح يدقق النظر فى النقوش والكتابة :

- « (ثيوس) .. ثم لا أفهم .. (بن) .. هذه كلمة (زيوس) واضحة .. لا أعرف يا (رفعت) .. فعلاً لا أعرف .. »

وراح يتحسس ثقب المفتاح بإصبعه الصغير .. ثم فتح درج مكتبه وأخرج مجموعة مفاتيح يفخر بها أى لص فى العالم .. كدت أقول الدعابة السخيفة المستهلكة : فيم تعمل بعد الظهر بالضبط ؟ ثم وجدت أن هذا لا يليق بى ..

بدأ يجرب المفاتيح .. لكنى كنت قد قدرت أنه لاجدوى .. لابد من مفتاح إغريقى أو (هللينى) له شكل معين .. هذا تحصيل حاصل ..

عاد يفتح الدرج، وأخرج فتاحة خطابات مدببة ومطواة .. وبدأ يحاول دس المطواة تحت الغطاء ..

هنا شعرت بأن مجال الرؤية ضيق فحسبت أننى أصبت بانفصال الشبكية أخيرًا (كنت أنتظره لكنى لا أعرف متى يأتى) .. إلا أننى وجدت أنها مدام (مارى) وقد وقفت ترقب المشهد فى فضول وهى تحمل صينية الشاى ..

قلت لها وأنا أرتجف رعبًا :

- « هلا تفضلت بوضع هذه الصينية ؟ أخشى أن الحماس سيجعلها تسقط فوقى .. »

مجرد دعابة لكنها قالت فى غلظة حقيقية :

- « كن مهذبًا .. أنا لا أسمح لك ! »

كانت هذه أول مرة تكلمنى فيها بهذه الطريقة، وقد تصلبت دهشة .. إنها تقبل من الدعابات ما هو أعنف .. هنا تدخل (رمزى) وهو منهمك فى الفتح :

- « احترمى أنت نفسك .. لا تنسى سنك من فضلك ! »

صاحت فى ضيق وقد بدا التوحش فى عينيها :

- « أنت منحط ! »

- « وأنت بلهاء ! »

هنا شعرت بغيظ عارم منهما .. غيظ لايمكن وصفه .. شىء كالنار لاترويه إلا الدماء، فصرخت وقد فقدت كل وقار لى :

- « اخرسا ! كنت أحسبكما أكثر رقيًا . أنتما تتشاجران كبائعتين متنمرتين فى سوق الخضار ! »

لوح د. (رمزى) بفتاحة الخطابات فى حنق وصرخ :

- « احترم البيت الذى يستضيفك ! »

- « أنا لا أرى بيتًا ! »

ومن المؤكد أن الأمور كانت إلى تصاعد، لولا أن (مارى) أطلقت صرخة .. ثم حدث ما توقعته بالضبط .. بحيرة من الشاى الساخن فوق سروالى .. ثم هى ممددة على البساط تتحسس عنقها وتحشرج ..

هنا فقط رقص الضوء الكهربائى كأنه موشك على الانطفاء، وللحظة حسبت الظلام سيعم .. وقلت لنفسى :

المصائب لاتأتى فرادى .. لن نستطيع إنقاذها ونحن نتخبط فى الظلام . لكن شدة التيار استقرت من جديد ..

كان الرعب قد أنسانى آلام الحريق ، لذا أسرعت إليها أتحسس نبضها .. كانت ترتجف بشدة لكنها واعية ، ولم تمت .. لكنها كانت محمومة بشدة ..

غريب هذا .. لم أر قط حمى ترتفع فى ثانية واحدة على طريقة (الآن تراه / الآن لاتراه) الشهيرة لدى الحواة .. وكان (رمزى) قد هرع إليها مذعوراً .. فجثا جوارها وهو يردد (مارى) بلا انقطاع ..

- « ماذا دهاها ؟ »

- « لاأعرف طبعاً .. لو كنت تحسب أننى (ابن سينا) فأنت مخطئ .. »

وحملناها لنضعها فى الفراش وهى ترتجف بلا انقطاع .. قال لى وهو يمسح العرق عن وجهه :

- « (رفعت) .. أنا آسف .. لاأعرف السبب الذى ... »

قلت له وأنا أتحسس معصمها :

- « فيما بعد .. أما الآن لو أردت أن تكون مفيداً ، فعليك أن تعد لى بعض الكمادات .. »

هرع إلى المطبخ وسمعت صوت أكثر من كسرولة تسقط فوق أخرى ، ثم صاح من هناك :

- « هل من شيء آخر ؟ »

- « نعم .. أى مخفض للحرارة لديك .. ليس الأسبيرين .. أى شيء سواه .. »

فأنا لا أستعمل الأسبيرين مع أية حمى لا أعرف مصدرها ..

- « (باراسيتامول Paracetamol) .. هل يصلح ؟ »

- « ممتاز .. »

الغريب أن حرارتها كانت تهبط .. إنها تتحسن ولاشك فى هذا .. لكن بعض الباراسيتامول لن يؤذيها ..

وهكذا جلسنا لمدة نصف ساعة جوارها ، نضع الكمادات ..

جو من الصمت الحزين ساد المكان .. كأننا استهلكنا عواطفنا فى كل هذا الصراخ .. وأخيراً بدا أنها نامت فى سلام فنهضنا عائدين إلى المكتب ..

* * *

قال لى د. (رمزى) وهو يضم راحتيه معًا :

ـ « حالة من الجنون الوقتى أصابتنى .. أقسم أننى كنت سأغرس هذا النصل فى عنقك أو عنقها بعد ثانية واحدة . »

قلت أنا بدورى :

ـ « وأنا كنت سأنتزع حنجرتك بأسنانى .. »

ثم فكرت قليلاً وأردفت :

ـ « لحظة .. وما سر هذه الحمى التى لم يسمع الطب بمثلها ؟ هناك حميات تظهر فجأة .. لكن ليس خلال ثوان .. »

ـ « وتشفى فجأة .. »

ثم نظرت إلى الجدار خلفه .. ثمة شىء ما غير موجود .. ماذا حدث ؟

نظر إلى حيث أنظر ثم نظر للأرض ، وقال فى أسى :

ـ « صورة (إيزيس Isis) التى أعلقها خلف المكتب .. لقد سقطت وتهشمت .. لابد أن هذا حدث عندما حملناها إلى الحجرة .. »

ـ « ولماذا تسقط صورة فى هذه اللحظة بالذات ؟ »

ـ « لا أدرى .. لقد جن كل شىء .. حتى الحبال التى تحمل الصور .. »

وظللنا صامتين نفكر ...

* * *

7 ـ هل تعرف ما أفكر فيه ؟

فى الثانية صباحًا خرجت إلى الصالة لأشرب ..

كان الصندوق موضوعًا على المنضدة وحيدًا كأنه كابوس .. لقد صار له وجود ملموس معنوى فى حياتى، وليس غريبًا أن د. (رمزى) أصر على ألا يبيت عنده ..

جذبت مقعدًا وجلست أمامه فى ضوء الصالة الخافت ..

من جديد أسمع هذه الأصوات الغريبة .. لاشك فى هذا ..

ظللت نحو نصف ساعة فى هذا الموضع، حتى إننى وثبت مترًا فى الهواء حين دق جرس الهاتف .. هرعت أرفع السماعة قبل أن يخرق الصمت وأعصابى أكثر من هذا ..

كان هذا صوت (رمزى)، وكان كافيًا كى أصاب بنوبة قلبية :

ـ « هل .. هل حدث مكروه ؟ »

استغرق وقتًا وهو يؤكد لى أنه ـ ويقسم بالله ـ لم يحدث شىء .. زوجته نائمة .. لكنها نهضت وذهبت للحمام وتناولت العشاء .. كل شىء على ما يرام ..

ـ « إذن ما الكارثة ؟ »

ـ « لا كارثة .. فقط أثرثر معك يا أخى .. ثمة فكرة مجنونة خطرت لى بصدد هذا الصندوق .. هل تعرف ما أفكر فيه ؟ »

قلت له :

ـ « أعتقد أننى خمنت .. »

ابتلع ريقه بصوت مسموع فى السماعة، وقال :

ـ « صندوق (بندورا Pandora) .. هذا هو ما خطر لك .. أليس كذلك ؟ »

* * *

لقد تركت الأساطير الإغريقية أثرًا هائلاً على الفكر الإنسانى عامة لا يختلف فى شىء عما تركته (ألف ليلة وليلة) .. لكن تعبير (صندوق بندورا) قد حفر فى الأذهان وفى عوالم الأدب إلى حد غير مسبوق، وصار يرمز للمشاكل النائمة التى يحسن تركها كذلك .. فقد يدفعك الفضول البشرى البغيض إلى اقتحامها فتجلب على نفسك الأهوال ..

قال د. (رمزى) :

ـ « هذا يفسر اسم (زيوس) وصورته على الصندوق .. »

تقول الأسطورة اليونانية إن (بروميثيوس Prometheus) وهو ابن (تيتان) الشهير، قد أسدى خدمة كبرى لـ (زيوس) .. هناك مصادر تقول إنه شفى (زيوس) من صداع مؤلم .. فى الحقيقة لست ميالاً إلى أن (زيوس) كان تافهًا سهل الإرضاء إلى هذا الحد، وإلا لانضم أى طبيب على شىء من البراعة إلى قائمة الأبطال الإغريق ..

وعلى طريقة مرضى الأرياف الذين يكافئون الطبيب لدى شفائهم ببطة أو أوزة، فإن (زيوس) قرر أن يمنح الأرض للأخ (بروميثيوس) ..

- « وهذا يفسر أيضًا لفظة (ثوس) على الصندوق .. »

ما زال (رمزى) يقاطعنى مصرًا على التفسير ..

الآن وقد صار (بروميثيوس) مسئولاً عن الأرض، فإنه قرر أن يعلم الإنسان أشياء كثيرة .. بل إن حماسه لهذا الإنسان جعله يخرق الكثير من قواعد (الأوليمب Olympus) الصارمة .. وراح زملاء (زيوس) يتهامسون :

- « هذا الفتى يبالغ .. إن اهتمامه بالبشر غير محمود .. »

فيقول (زيوس) فى تساهل :

- « دعوه .. دعوه .. لقد شفانى من الصداع .. إنه ولد

طيب .. ثم إن أباه من أسرة (التيتان) وهم قوم حسنو السمعة .. »

لكن (بروميثيوس) يتجاوز كل الحدود .. كان هناك نوع واحد من المعرفة يهمه بشكل خاص أن يصل إلى البشر .. النار .. إن النار أعظم اكتشاف فى التاريخ، وبفضلها استطاع الإنسان أن يجد الوقت والأمن والشبع والدفء الكافى للوصول إلى باقى ما عرفه ..

النار موجودة فى (الأوليمب) .. وجوارها لافتة كبيرة تقول : بتعليمات خاصة من الحاكم العسكرى، يمنع نقلها للبشر أو تعليمهم كيفية صنعها .. لا تنس أن آلهة الأساطير الإغريقية أنانيون بحق، يشعرون بأن الإنسان ينافسهم ..

هكذا قرر (بروميثيوس) أن يسرق لأول مرة فى حياته .. تسلل إلى الأوليمب وقبس من هذه النار، ثم نزل بها إلى الأرض، وهناك وضعها الناس فى معبد كبير .. بالفعل كانت النار توضع فى معبد خاص، ويحرم على أى مواطن أن يحتفظ بها فى داره .. فقط يأخذ منها ما يريد، ليطهو ما يريد ثم يطفئها .. وكانت تشرف على اشتعالها عذراء بائسة .. بائسة لأن النار لو انطفأت كانت تدفع حياتها ثمن ذلك، ولا أعرف من أين كانوا يأتون بنار أخرى لحرقها لكنهم كانوا يفعلون ذلك !

هكذا تجاوز (بروميثيوس) كل الحدود .. وقرر مجلس إدارة (الأوليمب) أنه لابد من عقابه بصرامة ..

كان أكثر المتحمسين للعقاب (زيوس) طبعًا بمنطق الأب الذى بالغ فى الثقة بابنه .. فلما خذله الابن كان عقابه شديدًا متوحشًا ..

ـ « افعلوا به ماتريدون .. هو ليس ابنى من الآن فصاعدًا ! »

ثم أخذ (بروميثيوس) إلى (القوقاز) حيث تم ربطه بين جبلين .. وتم تكليف رخ عملاق بأن يهاجمه كل يوم ليأكل كبده ، فإذا جاء الليل نما له كبد جديد .. هكذا دائرة مريعة من الألم تتجدد كل يوم ، لم يقطعها إلا قدوم الأخ (هرقل Hercules) أثناء إحدى مهماته .. لقد رأى المنظر فسأل (بروميثيوس) : يلزم خدمة يا كابتن ؟ ثم قرر أن يتدخل وقتل الرخ .. وحرر (بروميثيوس) وتركه ليواصل مهمته ..

عاد (بروميثيوس) للبشر فهلل القوم فرحين ، بينما كاد (زيوس) يموت بالفالج من الغيظ ..

لابد من الانتقام .. لكن كيف ؟

هنا خطرت له فكرة لابأس بها .. كان البشر الموجودون على الأرض جميعًا من الرجال ، مما يدل على أنه كان مجتمعًا سعيدًا فعلاً .. هكذا قرر أن يرسل لـ (بروميثيوس) هدية من نوع جديد .. المرأة ..

تقول الأسطورة الوثنية أن (زيوس) كلف (فولكان Vulcan) بصنع الأنثى الأولى .. إن (فولكان) حداد ولا أعرف فى الحقيقة دوره فى صنع الأنثى ، لكن بهذا ترمز الأسطورة إلى الطبيعة النارية للمرأة .. ثم تم استدعاء سادة (الأوليمب) الآخرين لتقديم هداياهم إلى هذه الأنثى الأولى .. قبلتها (فينوس Venus) ومنحتها الجمال والحب .. أن تلهم الحب فى الناس وتحبهم .. أما (مينرفا Menerva) فقد منحتها بعض الذكاء .. ثم ألهمتها (لاتونا Latuna) أن يكون لها قلب كلب .. ونفس لص .. وعقل ثعلب .. هذا هو ما تقوله الأسطورة ، وهو لايعجب جمعيات حقوق المرأة كثيرًا .. لكن الأسطورة تناقش ذلك الموقف الرجولى العام من المرأة .. أنها نعمة ونقمة معًا ، وأنها أجمل شىء حياتنا لكنها كذلك معذبتنا الدائمة ..

ماذا نطلق على هذه المخلوقة الحسناء ؟ إنها منحت كل العطايا الممكنة لذا أطلقوا عليها (التى منحت كل شىء) أو (بان ـ دورا Pandora) ...

تنزل (بندورا) إلى الأرض فتثير صخبًا .. إنها ملكة جمال العالم لسبب بسيط هو أنه لا يوجد سواها .. وبالطبع تلقى شباكها حول (بروميثيوس) لكن الرجل الحكيم سليل

(التيتان) والذى التهم الرخ كبده آلاف المرات ، لم يعد ذا مزاج رائق للنساء ، ثم إنه يشم رائحة خدعة فى الأمر .. هكذا تجاهلها ..

المخبول الذى هام بها حبًا هو أخوه (إبيميثيوس Epimetheus) .. يبدو أنه كان من ذلك الشباب الرقيع الذى يفقد وقاره أمام أول فتاة جميلة ، وقد أصر على أن يتزوجها .. وشعر (بروميثيوس) أن أخاه سيصاب بنوبة قلبية إن لم يلب طلبه فوافق على مضض .. وقد كان وعاش الأخ الرقيع أيامًا لا توصف من السعادة ..

هنا جاء الجزء الثانى من الخدعة يوم أرسل (زيوس) مبعوثه (هرمز Hermes) وهو فى الأساطير الإغريقية يلعب دور (الساعى) .. كان يحمل هدية للزوجين السعيدين .. هذه الهدية هى صندوق مغلق ..

كان (إبيميثوس) حكيمًا فى هذه النقطة ، فرفض فتح الصندوق .. لكن زوجته الحسناء راحت تلح عليه أن يفعل .. من يدرى أية كنوز أو أفراح تختفى داخله ؟ إن هناك أصواتًا تناديها من الداخل .. أصواتًا تعدها بالسعادة المطلقة .. لقد صارت حياتها جحيمًا وهى تجلس الليل والنهار جوار الصندوق تتخيل ما يحويه ، وكان الفضول يخنقها كأية أنثى فى

الأساطير .. زوجة ذى اللحية الزرقاء التى جن جنونها لتعرف ما يوجد فى الغرفة رقم مائة .. لقد ترك لها زوجها حرية التنقل بين تسع وتسعين غرفة ، لكنها لم تختر سوى الغرفة المائة ..

فى النهاية تنتهز فرصة غياب زوجها لتفتح الصندوق ..

فجأة أظلم العالم ، وخرجت أرواح شريرة من الصندوق .. أرواح يحمل كل منها اسمًا مخيفًا مثل (النفاق) .. (المرض) .. (الجوع) .. (الفقر) .. وراحت المسكينة تدور حول نفسها محاولة غلق الصندوق فلم تستطع .. لاحظ أن (بندورا) لم تكن شريرة لكنها استجابت لطبيعتها الفضولية كامرأة .. فى النهاية أغلقته بالفعل ولكن بعد أن حدثت الكارثة .. والجنة الجميلة السعيدة تحولت إلى جحيم حقيقى هو الذى نعيش فيه الآن ..

فلو لم تفتح (بندورا) الصندوق لكنا نعيش فى جنة حقيقية حسب رأى الأساطير الإغريقية ..

قال د. (رمزى) :

ـ « الأمر واضح .. كان هذا مقلبًا من (زيوس) .. والقصة كلها درس فلسفى رائع عن طبيعة المرأة الشغوف

بالجديد ، وعن عاقبة الفضول ، وعن حدود العلم البشرى .. كل شخص دنا من الحقيقة أكثر من اللازم نال عقابًا صارمًا .. (إيكاروس Icarus) اقترب من الشمس فذابت أجنحته الشمعية .. و (بروميثيوس) سرق المعرفة ـ النار ـ فعذبه الرخ ، وأرسلت (بندورا) وصندوقها إلى الأرض .. »

قلت له :

ـ « كل هذا جميل .. ولكن ما دخل هذا بقصتنا ؟ »

* * *

كانت هناك بضعة أسئلة ، وقد ناقشتها مع د. (رمزى) ونحن جالسان فى مكتبه نتأمل الصندوق ..

قال لى :

ـ « لاتوجد طريقة أخرى للتفكير .. كل شخص حاول فتح هذا الصندوق نشر وباء الجنون فى المكان الذى حاول ذلك فيه .. أنت حكيت لى عن المجزرة التى حدثت فى تلك الورشة .. لماذا تشاجر اللصان ؟ ثم لماذا انتقلت العدوى للجيران ؟ ماذا عن العصبية الشديدة التى أصابتنا أمس ؟ لماذا ارتفعت حرارة (مارى) فى ثوان ؟ لماذا سقطت الصورة المعلقة فى دارى ؟ هل يمكن تفسير هذه الظواهر إلا بأن الصندوق فعلاً يحوى الجنون والكوارث ؟ »

قلت له مفكرًا :

ـ « لحظة .. ليست هذه أول مواجهة بينى والأساطير الإغريقية .. لكن هناك قاعدة ثابتة .. لاتتكلم عن (زيوس) و (هيرا) ثم تبنى على هذا استنتاجًا .. أنت تعرف كما أعرف أن (زيوس) لاوجود له .. فكيف يكون هذا صندوقه ؟ »

ابتسم وتحسس الصندوق ، وقال :

ـ « الإجابة دائمًا كما يلى : إن (زيوس) محاولة لتفسير أسرار الكون .. لاوجود لـ (زيوس) لكن أسرار الكون باقية كما هى .. اعتقد الإغريق أن البرق هو السهام فى جعبة (زيوس) ، وأن الشمس هى شعلة فى يد (أبوللو Apollo) .. اليوم نؤمن أن الله خلق الظواهر الاستاتيكية والفيزيائية التى أدت لانبعاث الكهرباء التى هى البرق ، وأن الشمس هى نجم مضىء تدور حوله .. لقد كففنا عن الاعتقاد بـ (آمون) و (زيوس) و (أبوللو) لكن البرق والشمس مازالا موجودين .. لم لاتكون قصة صندوق (بندورا) هذه مجرد محاولة لتفسير الظاهرة الغريبة التى تحيط بهذا الصندوق ؟ »

قلت فى سعادة :

ـ « هذا صعب جداً .. لو كان هناك صندوق بهذه الصفات لسمعنا عنه فى كتب التاريخ لا كتب الأساطير .. كانت كتابات هيرودوت Herodotus) ستحوى التفاصيل الكاملة التى تريدها .. »

قال بعناد :

ـ « ثمة احتمال ثان .. هذا الصندوق محاكاة دقيقة للأسطورة .. »

ـ « لا أفهم .. »

أشار لى بإصبعه ، وقال :

ـ « فكر .. أنت (بروميثيوس) الذى عرف أكثر من اللازم ، من ثم عوقب بأن أرسلت له تلك الفتاة الحسناء .. قل ما اسمها ؟ »

ـ « إيفيتا .. »

ـ « نعم .. ومعها الصندوق .. إن القصة تتكرر حرفياً .. »

قلت فى ضيق :

ـ « لاحظ أن الفتاة لم تؤثر فى .. أثرت فى جارى (عزت) .. »

ـ « كما حدث مع (بروميثيوس) .. الذى وقع فى حب الفتاة هو أخوه (إبيميثيوس) .. إن من أرسل لك هذا الصندوق يتمتع بحس درامى لا بأس به .. »

فكرت فى الأمر ملياً ثم قلت :

ـ « ليكن .. ولكن من الذى أرسله لى ؟ من الذى يلعب دور (زيوس) ؟ »

ـ « لا أعرف .. إن أعداءك كثيرون .. »

ـ « وما الذى عرفت أكثر من اللازم ؟ إننى أعرف أقل من اللازم فى كل شىء .. »

ـ « من يعتقد أنك تعرف أكثر من اللازم هو من أرسل الصندوق .. لو عرفت هذا عرفت ذاك »

دققت بكفى على الصندوق وعدت أسأل :

ـ « والغرض ؟ هل هو أن أفتح الصندوق ؟ »

ـ « الغرض هو وضعك فى ذات المأزق الميتافيزيقى .. نحن نعرف أن الدمار والهم غزا الأرض عندما فتحت (بندورا) الصندوق .. أنت لم تفتحه بعد .. »

ـ « لكن هذا ـ حسب الأسطورة ـ يعنى أن الصندوق خال .. إن ما كان فيه قد ملأ الأرض فعلاً .. »

- « الأسطورة تقول إن (بندورا) أصيبت بالهلع حينما خرجت الكوارث من الصندوق .. هكذا أسرعت إلى غلقه .. إذن الأسطورة تقول إنه مازال مليئًا .. وتجربتنا تقول إنه مازال مليئا .. رهان هذا الشخص هو أنك ستفتحه .. عندها يزداد العالم سوءًا »

قلت وأنا أنهض في عصبية :

- « هذا هو أحمق .. لا يهمني إن كانت القصة حقيقية أم لا ، لكني لن أحاول فتحه .. أنا لا أملك ذرة فضول أنثوي في داخلي .. سأتخلص منه في مكان أمين .. »

فكر قليلاً ثم قال :

- « ألا تشعر بأنها خسارة إلى حد ما ؟ »

قلت وأنا ألف الصندوق في جريدة :

- « لقد رأيت جزءًا من أثره ، وهذا يكفي .. لو كان يحوي سر الكون فلن أفتحه .. »

قال وهو يعقد أصابعه في شكل رجاء :

- « فقط عدني بشيء واحد .. أريد أن تفتش في ذاكرتك جيدًا عن غاز يسبب هذه الأعراض .. »

- « فكرت في ذلك كثيرًا .. ولكن لا .. لا توجد غازات تسبب الجنون على قدر علمي .. غاز (أوكسيد النيتروز Nitrous Oxide) يسبب نوبات ضحك جنونية ، وقد استعمل في التخدير لهذا الغرض .. لكنه لا يسبب الجنون الذي يجعلك تفتك بجارك أو زوجتك .. هذا الصندوق ليس مغلقًا على (غاز الجنون) لو خطر لك هذا .. »

- « وغاز الأعصاب ؟ »

- « لا يسبب الجنون .. إنه يثبط إنزيم الكولين إستريز Cholinestrase كما تفعل قائمة طويلة من السموم .. هو فقط يفعل هذا بسرعة وفعالية .. لو كان اسم (غاز الأعصاب) قد أثار شهيتك فأنت مخطئ .. »

هز رأسه في غير اقتناع وتمنى لي حظًا سعيدًا ...

* * *

8- مـــأزق ..

فتحت باب شقتى محدثاً الصخب المعتاد ..

هنا انفتح باب شقة (عزت) .. كان بالمنامة فعرفت أنه ليس فى طريقه للخروج ، بل هو كان ينتظر سماع صوت مفتاحى ..

قلت له فى حرارة :

- « كيف حالك يا (عزت) ؟ »

هز رأسه ولم يتكلم .. فقط أشار إلى حلقه ..

دنوت منه وتحسست عنقه ، فوجدت بعض العقد اللمفاوية .. لامشكلة .. كل الرجال الذين لا يطيلون لحيتهم عندهم عقد لمفاوية فى العنق بسبب جروح الحلاقة التى قد لاتبدو للعين ..

قلت له :

- « لا بأس .. سآتى لك بمضاد حيوى مناسب .. سوف تشفى بسرعة .. »

قال مقاطعاً بصوت مبحوح كأنه أوزة ذبحت منذ دقيقة :

- « دعك من هذا فأنا أمقت الأدوية .. أنا أتعاطى ترسانة منها فلا أريد زيادة الطين بلة .. سأشفى تلقائياً .. فقط أردت أن أعطيك هذا .. »

كان فى يده مظروف أنيق من الطراز المبطن ، مما جعله يبدو سميكاً .. فنظرت له بعينين متسائلتين ، فقال :

- « هى أعطتنى هذا المظروف واشترطت ألا أعطيه لك إلا بعد رحيلها بأسبوع .. »

شعرت بالغيظ يحل محل عاطفة الشفقة وهتفت :

- « أنت ظللت تخفى عنى هذا أسبوعاً ؟ يا لك من أحمق ! »

- « إنما هى الأمانة .. »

هى .. هى .. المقلب الفاتن الذى جاءنا من اليونان .. وماذا تريد ؟ سيكون شعورى رائعاً لو اتضح أن محتوى الرسالة هو (عليك واحد) أو شىء من هذا القبيل ..

سألته فى حرص :

- « ما أخبارها ؟ »

قال فى حزن بصوته المبحوح العجيب :

- « لا أخبار .. لقد تلاشت من حياتى تمامًا .. »

طبعًا يا أحمق .. لن أخبرك طبعًا أن قصة إعجابها بك هى - على الأرجح - مجرد خدعة لتصل لى أنا ، وتترك الصندوق اللعين هدية ..

المهم أننى شكرته واتجهت إلى شقتى ..

هناك فى الصالة ذات الضوء الخافت جلست أتأمل الصندوق ، ثم مددت يدى إلى المظروف وفتحته .. كما قلت آنفًا كان محشوًا ببطانة تجعل من الصعب معرفة ما فيه ، لكن من السهل الآن أن تصطدم يدى بقضيب صغير مضلع الزوايا من النحاس .. نحاس يبدو عليه القدم ، وكل ما فيه يوحى بأنه مفتاح .. أى مفتاح ؟ الصندوق طبعًا .. لقد قررت أن تتركنى أجرب أسبوعًا ، ثم تقدم لى المفتاح ..

كان الخطاب مكتوبًا بالإنجليزية وبخط جميل حقًا :

- « عزيزى د. رفعت :

أحسبك الآن قد فهمت كل شىء وصرت قادرًا على اتخاذ قرار صحيح .. طبعًا أنا لا أنصحك بتاتًا بفتح الصندوق .. ثمة قرية كاملة زالت من الوجود فى اليونان بسبب أن هذا الصندوق فتح لمدة خمس دقائق .. لكن الموقف عسير وأنا أرثى لك .. إن صديقك البائس (عزت) مريض جدًا .. السم الذى حقنته له يسرى فى جسده ببطء شديد ، ولسوف يقضى عليه خلال أيام .. لكنى لست بهذه القسوة .. إن للسم ترياقًا ، وهذا الترياق سهل الاستعمال فلا يحتاج إلا إلى تجرعه ..

طبعًا لابد أن ذكاءك الحاد قد أرشدك الآن إلى أن الترياق فى الصندوق .. لا توجد طريقة للوصول إليه إلا استعمال المفتاح والتنقيب داخله جيدًا . تخلص من الصندوق يمت صديقك حالاً .. افتح الصندوق تحل الأهوال بالعالم .. الحقيقة إننى لا أتمنى أن أكون فى موضعك فى هذه اللحظة بالذات . »

(فينوس : نجمة النهار)

لم تكن الرسالة موقعة باسمها بل بهذا اللقب الغريب ، لكنها كانت بليغة جدًا وكافية ..

لن أتردد .. كل هذا الذى يقال عن صندوق (بندورا) هراء لا أكثر .. هذه محاولة لتخويفى ..

سأفتح الصندوق وليكن ما يكون ..

هكذا تحسست المفتاح ، ثم بيد راجفة أولجته فى الفتحة .. من الغريب أنه استجاب بسهولة و .. شليك .. تحرك نظام زنبركى ما لبث الغطاء مفتوحاً و ...

* * *

ما هذا الصداع ؟ ما هذا الصداع ؟

هل كل البراكين الخامدة على وجه الأرض قد قررت أن تنفجر فى رأسى ؟ أم أننى أصبت بنزف مخى ؟

كنت مذعوراً خائفاً ، وحين فتحت عينى رأيت أننى معلق .. نعم معلق من ذراعى كالنسر المحلق ..

كنت هناك فى الهواء على ارتفاع شاهق .. الأرض من بعيد مجرد بقعة تبدو أو تختفى بين السحب . نعم السحب .. فقد كنت فوق مستواها .. أرى ذلك المشهد المعتاد الذى تراه من نافذة الطائرة ..

الهواء بارد .. بل هو متجمد .. وأنظر لأعلى فأجد أن

الحبال التى تربطنى قوية جداً طويلة جداً ، وأنها تتدلى من قمتى جبلين .. بينما أنا معلق بينهما كدمية (ماريونيت) معدومة الحيلة ..

أصرخ فتتردد الأصداء .. أصرخ فيجف حلقى من الهواء البارد ..

ومن بعيد أرى ذلك الطائر الأحمر .. طائر أحمر ؟

كان غريب المنظر أقرب إلى ديوك المصارعة شرسة المنظر .. لكنه ذو جناحين عملاقين .. وكان هو نفسه ضخماً إلى حد مهول .. ليس نسراً .. ليس عقاباً ..

إنه يقترب منى ويصرخ .. ذلك الصراخ الشبحى المخيف الذى تسمعه فى السينما من حناجر هذه المخلوقات ..

إنه يرفرف بالقرب منى ، ثم يفتح منقاره الشبيه بالخنجرين ..

هنا فهمت ..

أنا الآن ألعب دور (بروميثيوس) وهذا الرخ الشنيع يريد كبدى ..

هذه إذن هلوسة .. لا .. ليست كذلك ..

كل حواسي تعمل بكفاءة ، وإحساسي متكامل بالزمان والمكان .. لقد انتقل جسدي بالكامل إلى بعد آخر ..

بربك لست أنا .. أنت أخطأت الشخص .. (برومثيوس) بطل أسطوري هو جزء من هذا المكان وتلكم العوالم ، أما أنا فرجل بسيط .. رجل أعظم بطولاته استبدال مصباح الحمام ، من دون أن ينزلق تحته المقعد الصغير فيهوى ليدق عنقه ..

ولكن .. إن المنقار يمزق كبدي فعلاً !

لا جدال في هذا .. إن ذلك الطائر البشع يبتعد وفي فمه شيء أحمر .. لا أريد أن أنظر .. لا أشعر ألمًا ، لكن ذلك الشعور بالبلل ، والشعور بأن البلل يتحول إلى جليد ..

لا .. أنا لا أريد ...

وسمعت الأصوات تأمرني : أغلق الصندوق يا أحمق ! أغلقه !

* * *

من جديد أنا في الصالة غارقًا في العرق ..

هذا البلل ..

مددت يدي أتحسس أسفل صدري من الناحية اليمنى فوجدت أن قميصي ممزق ، وأن هناك دمًا .. دمًا غزيرًا .. أصابني الهلع والغثيان فلابد أنني فقدت الوعي لدقائق ...

وحين أفقت عرفت أنني حي أرزق .. لكن الدم كان في مكانه ..

لم يحدث شيء يا أحمق . لا تخف .. الرخ لم يلتهم كبدك .. كانت تلك هلوسة بغرض الإنذار ..

الصندوق مغلق .. فمن الواضح أنك لم تجد الوقت لتفعل أي شيء .. لقد شعرت بالكارثة فأغلقته ..

والآن يوجد احتمالان : إما أن يكون صاحب الرسالة صادقًا بصدد الترياق .. وإما أن يكون كاذبًا وليس هناك من خطر يتهدد (عزت) .. هو فقط يحاول وضعي في موقف عسير .. في جميع الأحوال فتح هذا الصندوق خطر .. لقد جربت هذا مرارًا ..

ـ « أعتقد أنها أعدت لك مقلبًا ما .. فهي تحب العبث ولها عقل ثعلب .. »

ـ « ثم ألهمتها (لاتونا) أن يكون لها قلب كلب .. ونفس لص .. وعقل ثعلب .. »

من هي ؟

هل هى هى حقًا ، أم أنها مجرد واجهة لقوى أخرى أكبر تعبث بى ؟

لا أعرف متى قررت أن أنسى كل هذا وأنام .. بدلت القميص أولاً فوجدت خدوشًا قبيحة على بطنى .. ليست الخدوش التى تحدثها مخالب رخ طبعًا ، لكنها غائرة فى جدار البطن .. من يدرى ؟ ربما أحدثتها أنا فى نفسى أثناء تلك الغيبوبة ، وربما أحدثها شىء ما لا أعرف كنهه موجود فى الصندوق .. المهم أن تأثيرها النفسى كان ساحقًا ..

قمت بتطهيرها .. يعلم الله نوع الجراثيم التى تتوارى تحت أظفار الرخ .. يجب أن أفكر فى ورقة علمية بهذا الصدد ..

على الأقل أنا محتفظ بكبدى .. لهذه الليلة على الأقل ..

* * *

قال لى د. (ماهر) وهو يغلق مفتاح الضوء الكهربائى :

- « هل أنت متأهب ؟ »

قلت وأنا آخذ نفسًا عميقًا :

- « نعم .. »

قام بتشغيل مصباح الأشعة تحت الحمراء ، وقمنا بتثبيت العوينات .. فى هذا الضوء الغريب نرى كل شىء أخضر زمرديًا مخيفًا ..

لم يكن سوانا فى مختبر الفيزياء ، وهو مختبر خاص منعزل لا يدخله الطلبة ، مخصص لأبحاث أعضاء التدريس هنا .. هكذا مددت يدى إلى المفتاح وأدرته بحرص فى الثقب .. وهذه المرة ضغطت على الغطاء بيدى كى لا يثب كما فعل معى أمس .. فقط سمحت له بأن يرتفع مسافة لا تتجاوز بضعة ملليمترات ..

وساد صمت رهيب ...

إننى الآن أراها .. د. (ماهر) أيضًا رآها ..

سحابة الدخان المشع البراق تتسلل من الصندوق .. دخان مبهم كالذى ينبعث من لفافة تبغ منسية فى يد شخص لاه .. لكن الدخان يلتف .. يصنع أشكالاً قطنية غريبة .. يمكنك أن تتبين وجهًا وملامح .. لكنها لا كأية ملامح .. ملامح شيطانية هى كرسوم الغيلان فى رسوم القرون الوسطى ...

هذا فم .. هذه أنياب بارزة .. هل ترى ؟ هناك مخالب .. تتفرع مع الدخان .. ثم تتحول بدورها إلى وجه آخر .. بينما الأنياب تتحول إلى مخالب فى ذراعى شبح آخر ..

شهق د. (ماهر) رعبًا في الظلام ، وهمس :

ـ « أغلقه .. أغلقه بالله عليك .. »

لكنني ظللت كما كنت مبهور الأنفاس ..

سحابة الدخان تزحف ببطء .. تقترب مني ، لكنها لا تفعل ذلك مباشرة ، ولكنها تدور لتصل إلى بطريق غير مباشر .. كأنها تريد أن ترقص رقصة الموت من حولي أولاً .. ورأيت وجهًا مريعًا يذكرك بوجوه القرع العسلي التي يصطنعها الأطفال الغربيون في عشية عيد القديسين Halloween ..

كان يدنو مني ...

لا أتوهم شيئًا .. إن صوتًا غريبًا عميقًا يصدر منه ..

يقترب أكثر .. يقترب ..

فجأة ينطلق صوت د. (ماهر) في الظلام :

ـ « أيها الغبي الأحمق ! أنت مجرد خنزير .. يا لك من وغد ! أنا لا أكره شيئًا في العالم سوى أمثالك ممن يتظاهرون بالعلم والذكاء ، بينما هم يقودون أنفسهم والآخرين إلى كارثة ! ولكن .. أيها الغبي الأحمق ! أنت مجرد خنزير .. يا لك من وغد ! هل تريد رأيي فيك ؟ أنت وغد .. وغد .. وغد »

ثم سمعته ينهض :

ـ « أقسم بالله العظيم أنك لو لم تغلق الصندوق حالاً ، لنهضت وهشمت كل قطعة خشب في هذا المقعد فوق رأسك الأصلع القبيح .. من يدري ؟ لعلك تصير أجمل بعد هذه العملية ! »

هنا فقط أحكمت غلق الغطاء ، وأدرت المفتاح ...

لا أدري كيف ، لكن هذه الأشكال توارت على الفور .. لو كانت خواص المادة تعمل هنا لبقيت أجزاء منها في هواء الغرفة .. لقطعها غطاء الصندوق حين أغلقته .. لكن هذا لم يحدث ..

ساد الصمت من جديد ثم قلت بصوت أجش :

ـ « أعد الضوء .. »

هذه المرة فتح د. (ماهر) الستائر فغمر الغرفة ضوء النهار الساطع يذكرك بأن هناك عالمًا بالخارج ، وهو لم ينته بعد .. كان هناك طالب يثرثر مع فتاة في حديقة الكلية ، وقد بدا واضحًا أنه يهيم بها .. يعتقد أنه فهم كل شيء وخبر كل شيء وأن الجزء الضئيل من أسرار العالم الذي لا يعرفه ، لا يستحق معرفته .. كيف لو رأى ما كان يحدث هنا من دقيقة ؟

قال د. (ماهر) وهو يعود للجلوس شاحب الوجه :

- « أنا آسف .. لا أعرف سر العصبية التى استبدت بى .. لم أعن حرفًا مما قلت .. »

قلت راسمًا ابتسامة :

- « أنت لم تقل شيئًا جديدًا .. لقد سمعت هذه الآراء عنى مرارًا .. حتى بدأت أعتبرها حقائق لا إهانات »

بلل شفته السفلى بلسانه ، وقال :

- « هذا الصندوق مرعب .. »

- « أعرف أنه مرعب .. لا أحتاج إلى أستاذ فيزياء كى يخبرنى بهذا .. لكن ما تفسيرك لمحتواه ؟ »

ضحك فى عصبية وقال :

- « تفسير ؟ كف عن المزاح .. لى نصيحة واحدة هى أن تتخلص منه فى أقرب حفرة .. أو أن تبلغ هيئة الطاقة الذرية كى يدفنوه مع مخلفات المفاعلات .. هذا هو الضمان الوحيد .. »

خطر لى للحظة أن هذا هو الحل الأمثل .. ليس التخلص من الصندوق لكن التعامل معه كأنه مشع .. من وراء زجاج سميك يمكن أن تفتحه وأن تبحث عن الترياق ، ثم تغلقه .. كل هذا دون أن يتعرض له كائن بشرى ..

لكن من قال إن هذه الأساليب المادية (الفيزيائية) تصلح مع عالم لا مقاييس له ؟ من قال إن هذه الكائنات لا تخترق الزجاج السميك أو الرصاص ؟

شكرته وغادرت المكان شارد الذهن ..

* * *

9ـ محاولة فاشلة ..

عندما جاء المساء طرقت باب (عزت) لأطمئن ..

فتح لى الباب ، وعلى الفور أدركت أن الأمور ازدادت سوءًا ..

كان وجهه منتفخًا بشدة ، وقد زال صوته أو كاد .. وتورمت الغدد الليمفاوية فى عنقه ، كأنما هى صورة فى مرجع طبى عن داء هودجكين Hodgkin وهو نوع من سرطان اللمف ..

قلت له فى رعب :

ـ « أنت فى حال سيئة .. »

هذه المرة لم يجادل كثيرًا .. هز رأسه موافقًا .. وهذه المرة أيضًا لم أتركه .. أصررت على أن آخذه فى جولة طبية سريعة .. لابد من رأى طبيب أنف وأذن وحنجرة* يقسم لى أن هذه ليست (دفتيريا) .. لابد من صورة دم دقيقة أقرؤها بنفسى لأننى لا أثق بشخص آخر .. لابد من بعض فحوص مختبرية ..

إن ليلة حافلة تنتظرنى ..

لكن النتيجة ـ بعد عناء ـ كانت مجموعة من علامات الاستفهام .. الكثير من هزات الرأس .. لا أحد يفهم الموجود ، لكنه ليس خطيرًا على الأرجح ..

وخطر لى أننى ـ ربما ـ الوحيد الذى يعرف الحقيقة كاملة ..

لكن أية حقيقة هذه وكيف أستفيد منها ؟

* * *

فى ظلام الليل قدت سيارتى فى ذلك الطريق المنعزل ..

لم يكن هناك أحد ، ولم أر أضواء سيارات أخرى ..
لا بأس .. إن الحظ حليفى حتى هذه اللحظة ..

أخيرًا أنا خارج المدينة .. خارج العمران .. لو أردت الدقة أنا فى مكان ما من طريق صحراوى ، حيث يوجد ممر جانبى أعرفه جيدًا ..

مشيت بسيارتى نحو ربع الساعة فى تلك الطرقات المتعرجة الخطرة ، وفى النهاية أوقفت السيارة وترجلت ..

القمر يسطع جاعلاً الرؤية ممكنة .. ليست أروع رؤية فى الكون ، لكنها ممكنة ..

هناك تلك المنحدر الوعر الذى تحف به نباتات الصبار .. هناك هاوية عمقها نحو ستة أمتار ، لكن ليس العمق هو ما أريد .. ما أريده هو صعوبة أن يجتاز مخلوق كل هذه الأشواك ليصل إلى أسفل .. ما أريده هو مكان لايصله بشر .. وحتى أنا لو أردت استرداد الصندوق فلن أستطيع ..

نظرت حولى ثم أخرجت الصندوق من السيارة ..

رفعته وتركته يهوى عبر المنحدر الوعر .. صوت الصبار يتمزق أو ينزع من مكانه ، ثم توقفت الأصوات بعدما وجد الصندوق مستقراً له ..

حتى لو وجده أحدهم سوف يستغرق وقتاً طويلاً فى محاولة فتحه لأن المفتاح سيظل معى ..

قد تسألنى : وماذا عن الترياق ؟

لا أعرف .. لقد اتخذت قرارى على كل حال .. إما أن موضوع الترياق خدعة ، وأنا لن أجازف من أجل خدعة .. وإما أنه حقيقة وأنا لن أعرض الناس لهذا الخطر الشيطانى من أجل سلامة شخص واحد ..

فليحم الله (عزت) وينقذه .. فأنا عاجز عن العثور على حل أرضى لهذه المشكلة ..

كان هذا هو قرارى العسير الذى وصلت إليه بعد ساعات من التفكير ، منذ عدت بـ (عزت) من الجولة الطبية . لهذا لايندهشن أحدكم لو عرف أن الساعة الآن الثالثة صباحاً ...

استدرت عائداً إلى السيارة .. الحصن الآمن الدافئ .. الحصن الذى يحمل دائماً خطر أن يتعطل أو يفشل فى الفرار بك ..

وانطلقت عائداً من حيث كنت ..

لابد أننى قدت السيارة نحو ربع ساعة .. ولابد أننى بدأت أنعس حين لمحت هؤلاء الرجال واقفين على الطريق ، وهم يشيرون لى بكشافات عدة ..

قطاع طرق ؟ ثم دنوت أكثر فعرفت أنهم على الأرجح رجال مباحث .. هذا كمين أعد فى الساعة المتأخرة ، ولا ألومهم لأن هذه المنطقة خطرة سيئة السمعة .. ولو لم يرتابوا فى سيارة تمشى .. فى الرابعة صباحاً ، فيم يرتابون إذن ؟ لو لم يرتابوا فإننا نعيش فى (يوتوبيا) ذاتها حيث كل الناس صادقون شرفاء ..

رأيت ضابطاً بثياب مدنية .. لايمكن أن تحسبه شخصاً

آخر .. وعدداً من المخبرين يلبسون الزى الرسمى للمخبرين : المعطف الثقيل والطاقية والعصا .. فقط ينقصهم أن يعلقوا لافتة (مخبر) على الصدور ..

دنا منى أحد هؤلاء ونظر إلى السيارة جيدًا ، ثم طلب منى الرخصتين .. تفحصهما بعناية ثم طلب منى أن أترجل ..

إنه التوتر البوليسى الذى يجعلك تتصرف بعصبية لا داعى لها .. لكنى قدرت أنهم يعرفون هذا بخبرتهم ..

ألقى نظرة على السيارة ثم صاح مناديًا الضابط :

ـ « هذا الصندوق يا فندم ! »

صندوق ؟!

تصلبت فى ذعر .. فرأيته يخرج من الباب الخلفى ذلك الصندوق اللعين .. إنه هنا ! وراح الدم يصفر فى أذنى .

لقد عاد ! لقد عاد !

هذه رسالة واضحة لى : لا تتخلص منه فإنه يخصك ! القرار العسير ينتظر وعليك أن تتخذه ..

على أن منظرى بالطبع لم يبد كشخص أثار هلعه أن

الصندوق عاد .. بدا منظرى صالحًا لتمثال اسمه (المشبوه) .. أو لصورة فى كتاب كتب تحتها (يكاد المريب أن يقول خذونى) .. أو صورة فى الجريدة لإرهابى سقط فى قبضة الشرطة بصندوق المتفجرات ، أو متآمر سقط بصندوق المنشورات ، أو ـ فى أحسن الظروف ـ مهرب مخدرات افتضح أمر بضاعته ..

سألنى الضابط فى هدوء وهو يسلط كشافًا على الصندوق :

ـ « ماذا يحوى هذا الصندوق ؟ »

قلت وأنا أبتلع ريقى:

ـ « لا أعرف .. »

نظر لى فى حيرة ، وأعترف أنه كان مهذبًا برغم كل شىء ..

قال بنفس الهدوء :

ـ « افتحه .. »

لم أرد .. فقط مددت يدى إلى جيبى فهتف أحد المخبرين :

ـ « بهدوء ! »

لكن يدى خرجت حاملة المفتاح النحاسى الصغير ، وقلت :

ـ « هذا هو المفتاح لكنى لا أنصح بفتحه .. »

سألنى الضابط وقد بدأ يتوتر :

ـ « ما الشىء الموجود فى هذا الصندوق ؟ »

ـ « لا أعرف .. لكنه خطر .. هذا هو ما أملك قوله .. »

نظر إلى أحد المخبرين وقال آمرًا وهو يشير للمفتاح فى يدى :

ـ « افتحه يا (بسطويسى) ولكن بحذر .. »

خطر لى أنه من الواجب ـ يومًا ما ـ أن أجرى دراسة ميدانية لمعرفة لماذا يحمل كل المخبرين اسم (بسطويسى) .. طبعًا كانت فكرة عابرة لا مكان لها ، وتدل على نوع من الخبال فى تفكيرى ..

المهم أن الأخ (بسطويسى) مد يده وعالج المفتاح ، فوثب الغطاء مفتوحًا .. قال لرئيسه وهو يتفقد الداخل بالكشاف :

ـ « إنه فارغ يا سيدى .. »

فارغ ؟ ولكن ؟

ثم أغلقه ووقف ينتظر التعليمات ..

راح الضابط يسألنى بضعة أسئلة روتينية عن السبب الذى جعلنى أتواجد هنا فى هذه الساعة ، ما دمت لا أهرب المخدرات أو أدفن قتيلاً .. هذا فى رأيه تصرف مريب ، وكأن القتلة والمهربين هم الوحيدون الذى من حقهم التام ـ وربما من واجبهم ـ التواجد هنا ..

كنت أنا ـ كما تتوقعون ـ غارقًا فى عالم كثيف من الأسئلة .. لسانى يخترع المبررات لكنى لا أعرف ما يقوله فعلاً .. دعه يتصرف فهو يعرف كيف يعتنى بنفسه .. إنه لسان عجوز بارع ..

لماذا لم يجن الجميع ؟ لماذا مر الأمر بهذه البساطة ؟

هل انتهت شحنة الصندوق من الكوارث ؟

فى النهاية أعادوا لى الرخصتين .. وسمحوا لى بأن أنطلق ..

قلت فى نفسى : كان هذا قريبًا جدًا .. كانت مذبحة ستقع وأكون مسئولاً عنها بشكل أو بآخر ..

أم أن القصة كلها وهم فى رأسى ؟

* * *

قال د. (رمزى) وهو يغلق الكتاب العملاق الذى كان يطالعه :

- « وهم لا .. آسف .. لقد رأيت معك كل شىء .. »

ثم أضاف وهو يعيد الكتاب إلى المكتبة :

- « لو فقدنا الثقة فى حواسنا فماذا يبقى لنا ؟ »

قلت له فى ضيق :

- « الحقيقة إننى لا أجد تفسيرًا .. »

قال مفكرًا :

- « ثمة احتمال لا بأس به أن تكون الشحنة قد فرغت .. أنت تقول إن الصندوق قد فتح من قبل وسبب كارثة فى قرية يونانية .. ماذا يمنع من أن تكون التجارب المستمرة قد أفرغت شحنته ؟ »

- « بهذه البساطة ؟ »

ثم مددت يدى إلى جيبى وأخرجت تلك القصاصة التى أعطانيها (عزت) .. ناولتها له ، وقلت :

- « تأمل هذه وفكر .. هل لديك انطباعات معينة ؟ »

راح يقرأ بصوت مسموع :

- « أحسبك الآن قد فهمت .. نم نم .. لا أفصح .. نم نم .. نجمة النهار .. هل أنت متأكد من أنك لا تعرف واحدة بهذا الاسم ؟ »

قلت وأنا أمدد ساقى على مسند وجدته أمام مقعدى :

- « بالطبع لا .. المفروض أن كاتبة هذه الرسالة هى (إيفيتا) نفسها .. إن الفتيات يطلقن على أنفسهن أسماء شاعرية تشبه تصورهن لأنفسهن .. عرفت فتاة تلقب نفسها بـ (القلب المرهف) وفتاة تلقب نفسها بـ (آخر شىء محترم) .. هذه الفتاة تعتبر نفسها (فينوس) .. ولا أعتقد أنها مخطئة إلى هذا الحد .. »

قال مفكرًا :

- « ليس الأمر بهذه البساطة .. هى ليست من هذا الطراز .. أعتقد أن هذا الاسم تم اختياره بعناية لتوصيل رسالة ما .. »

هنا توقفت وقد بدا لى الأمر مألوفًا :

- « كوكب الزهرة (فينوس) يظهر فى الصباح .. لذا يطلق عليه اسم (نجمة النهار) .. و ... »

وارتجفت .. كل هذا يبدو مألوفًا أكثر من اللازم :

ـ « (نجمة النهار) .. باللاتينية .. أى الغرور الذى يقود صاحبه للهلاك فى الديانة المسيحية ، من ثم صار المصطلح يعنى الشيطان .. (لوسيفر Lucifer) »

لم يكن د. (رمزى) ملمًا بهذا الجزء من تاريخى الحافل ، لذا تساءل فى حيرة :

ـ « هل هذا مهم ؟ »

ـ « صديق قديم أرسل لى هذه الهدية وهذا الملقب ليرى كيف أتصرف .. »

وتخيلت د. (لوسيفر) يستمتع بوقته تمامًا ، ويردد مقولته الأبدية : إننى بهذا أسعد ، وله قلبى يطرب ..

سألنى د. (رمزى) السؤال المهم هنا :

ـ « هل يفيدك هذا فى معرفة ما ينبغى عمله ؟ »

قلت وأنا أقلب الاحتمالات فى ذهنى :

ـ « لا أظن .. لكننى عرفت على الأقل من يكمن وراء هذا كله .. إنه وغد .. وهو يعتقد أننى عرفت أكثر مما يجب بالنسبة لشخص فان .. لذا أرسل لى هذا الانتقام الفريد من

نوعه .. وأنا أفهمه إلى حد ما ، وأعرف أن هناك حلاً للمعضلة .. طريقة تفكيره تحتم أن يكون هناك حلاً للمعضلة ، لأنه يعشق هذه الألعاب الصغيرة .. لكن الحل مراوغ مثله .. ربما يكون لفظيًا .. »

قال فى رضا كأن المشكلة انتهت :

ـ « جميل .. أرى أن تجلس فى دارك وتعيد التفكير فى القصة عدة مرات .. وأرى أن تترك لى الصندوق .. لا تخف .. أنا لن أفتحه .. »

ثم فكر قليلاً واستدرك :

ـ « أو ربما أفتحه .. فأنا أعتقد بصدق أنه خال ! »

* * *

10 ـ وجدت الحل ..

دق جرس الهاتف فركضت لأرد عليه .. تعثرت فى البساط وبصعوبة تمكنت من التوازن ، لهذا تمنيت لمصلحة المتكلم أن يكون الأمر مهمًا ..

جاء صوت أنثى من الهاتف :

ـ « د. (رفعت) ؟ أنا (مارى) .. »

طبعًا هى (مارى) زوجة د. (رمزى) .. وطبعًا هناك كارثة ..

ـ « ماذا حدث ؟ »

ـ « (رمزى) فى حالة هياج غير طبيعية .. لقد حطم كثيرًا من الأثاث ، ثم اتجه إلى الجيران ليتشاجر معهم .. يبدو أنه تذكر فجأة أنهم تركوا كيس القمامة على بابنا منذ عامين .. أرجوك أن تأتى .. »

هكذا ارتديت ثيابى سريعًا ، وانطلقت فى الشوارع قاصدًا بيت د. (رمزى) ...

كان المشهد حين اقتربت كابوسيًا ، فالشارع مزدحم ، وهناك سيارة إطفاء تقف .. بينما المياه أغرقت الشارع حتى

الكاحلين .. وكان هناك رجال إطفاء يهرعون إلى الدرج ، بينما سيارة إسعاف تحاول أن تجد مكانًا تتوقف فيه .. مئات المتسكعين يقفون هناك ..

ثمة سيارة اصطدمت بعمود نور عبر الشارع ، وقد تحولت مقدمتها إلى ورقة مجعدة تقريبًا ...

هناك نسوة يقفن بثياب النوم ويصرخن ويلطمن الخدود ، والدخان يتصاعد من كل مكان فى البناية ...

المزيد من المياه ترتفع ، ورجل مطافئ يحمل (الباشبورى) يصرخ فى زميله :

ـ « تهشمت المضخة .. ما هذا النحس ؟ »

فى هذه اللحظة ركضت سيارة عبر الشارع بسرعة جنونية .. أحمق يعتقد أنه على الطريق السريع ، أو أنه يقود نفاثة .. وهكذا لم يجد وقتًا ليتحاشى سيارة وقف صاحبها ليراقب المشهد عن كثب .. وعلى الفور انفجرت ملحمة ارتطام الحديد بالحديد ...

اخترقت الزحام بقوة .. تلقيت أكثر من لكمة أو ضربة كوع فى وجهى ، لكنى بلغت الدرج ...

وهتف أحد رجال الإطفاء وهو يسد الطريق بيده :

ـ « لا يمكنك أن تصعد .. »

هتفت بالرعب المناسب لإقناعه :

ـ « أنا أسكن هنا .. »

كان المصعد معطلاً طبعًا .. فيما بعد عرفت أن الحبال التى تتمسك به قد انقطعت .. لكنه كان خاليًا لحسن الحظ .

رحت أركض صاعدًا الدرج شاعرًا بأن كل درجة هى الأخيرة ، والدخان يتزايد ...

لقد فتح الأحمق الصندوق .. فتحه .. واتضح أنه كان مخطئًا .. ما زال الصندوق قادرًا على عمل الكثير ..

البناية الراقية الأنيقة تحولت إلى مستشفى مجانين .. لكنى واصلت الصعود ..

وعرفت أن الحريق شب بالطابق الثانى .. يبدو أنه ماس كهربائى .. هذا يبعد شقة (رمزى) عن القصة ، لكن لا أعرف كيف تمكن وزوجته من مغادرة الشقة فى الطابق الخامس .. هذا إن كانا غادراها ...

واصلت الصعود .. وفى الطابق الخامس وجدت زحامًا مرعبًا ، وحاولت أن أفهم ما يدور هناك لكن يدًا باردة وضعت على كتفى ..

ـ « د. (رفعت) .. نحن بخير .. »

إنها مدام (مارى) .. حمدًا لله .. صحيح أن هنالك كدمة حديثة واضحة فوق حاجبها ، وصحيح أن عينها اليسرى تورمت كالملاكمين .. لكن هذه أمور قابلة للإصلاح ..

واصلت الكلام وهى ترتجف :

ـ « كان (رمزى) على وشك قتل الجيران أو كانوا هم على وشك قتله .. لولا شب الحريق .. لقد أنقذنا هذا الحريق لأنه بدد جو العدوانية العام .. أرجو أن يكونوا قد سيطروا عليه .. »

قلت لها وأنا أهرع إلى شقتها مفتوحة الباب :

ـ « أعتقد ذلك .. ما دمت أنا نفسى لم أحترق ، فمن الواضح أنهم سيطروا عليه ! »

ـ « وإلى أين أنت ذاهب ؟ »

ـ « الحمام طبعًا ! »

كان لابد من حجة أبرر بها اقتحام شقتها بينما هى وزوجها بالخارج ...

بالفعل رأيت الكثير من الأثاث المبعثر .. ويبدو أن شاشة التلفزيون قد تلقت ضربة محكمة بمطفأة التبغ .. دست على عشرات الأشياء الثمينة ..

هذا هو المكتب ...

يجب أن أعمل بسرعة إننى ...

هذا هو الصندوق .. إنه مفتوح بالفعل .. صندوق (بندورا) مفتوح وأنا ...

إننى ألبس ثيابًا إغريقية .. أرى نفسى أتسلل وسط معبد إغريقى هائل الحجم .. هناك تمثال ضخم لـ (زيوس) .. هناك نار عملاقة موقدة فى حفرة تحت قدمى التمثال . أنظر حولى .. أخرج من تحت ثيابى قطعة من المعدن .. أمسك بعصا معدنية ، وأمد طرفها إلى النار .. أوه ! إنها ساخنة .. طبعًا يا أحمق .. المعادن موصلة جيدة للحرارة .. ألم تتعلم هذا ؟ لكن لا وقت يسمح بالألم ..

لا بد من سرقة بعض هذه الزهور المشتعلة .. إن الأمر يستحق ...

لا بد من ...

كف يا (لوسيفر) عن هذه الألعاب السخيفة .. أنا لست (بروميثيوس) و (بروميثيوس) لم يكن له وجود ..

أرى الصندوق المفتوح أمامى فأغلقه بعنف وغلظة وإحكام ..

أخيرًا بعض السلام ..

ثم ألتقط المفتاح فأديره فى القفل .. أحمل الصندوق تحت إبطى وأغادر الشقة ..

لاتسألنى عن مصدر هذا الألم فى كفى .. لقد أحرقنى عمود ساخن فى (الأوليمب) منذ دقائق .. ظننت هذا واضحًا .. تسألنى كيف ؟ لأن أوهام (لوسيفر) لها ملمس وطعم ولون ورائحة .. إنها تحرق وتخمش وتدمى ..

فى الخارج وقف حشد الناس .. لقد بدأ الهدوء يسود المكان كما توقعت ..

ـ « أنت هناك ! إلى إين تذهب بهذا الصندوق ؟ »

كان هذا أحد الواقفين وقد رآنى أغادر شقة (رمزى) بهذا الصندوق الذى يبدو ثمينًا .. طبعًا منظرى مريب جدًا ..

ـ « دعوه .. دعوه .. فهو صديقى .. »

كان هذا هو د. (رمزى) نفسه ..

رأيته فى امتنان يقف وسط الناس .. يبدو أنهم يتصافون أو يدبرون ما نسميه نحن (قعدة عرب) .. كان مبعثر الثياب مغبر الوجه .. ويبدو أنه لم يضرب الجيران فقط بل ضربوه هم أيضًا ..

ابتسم لى وقد فهم ما قمت به ، فهززت رأسى بمعنى (لقد ـ فهمت ـ ما ـ حدث) .. فهز رأسه بمعنى (خذ ـ معك ـ وكن ـ حذرًا) .. نظرت له نظرة من طراز (أنت ـ معتوه) .. فابتسم فى إنهاك ..

هكذا غادرت البناية ، وقد أدركت أننى بالفعل قمت بالشىء المناسب .. كان المكان سيتحول سريعًا إلى جحيم (دانتى) ..

وقدت سيارتى وأنا أتأمل الصندوق فى غل ..

المشكلة هى أننى لا أجد الوقت فى أية مرة كى أفتشك بعناية .. لو كان هذا الترياق فيك فأنا لا أجد الوقت للبحث عنه لأن الهلاوس الملموسة تهاجمنى ..

ورحت أقود سيارتى فى جنون وأنا غارق فى أفكار سوداء ..

فجأة خطر لى الجواب .

وكان معقولاً ..

أعتقد أننى أعرف ما يجب عمله ..

* * *

لم يرد (عزت) على حين قرعت الباب ...

واصلت الدق حتى استجاب أخيرًا .. أدركت من خطواته أن الأمر صار خطيرًا ، وحين فتح لى الباب رأيت صورة فذة جديرة بكوابيسى ..

قلت له وأنا أجره إلى الفراش :

ـ « يا لك من شيطان تعس ! لم يعد من حقك أن تظل وحيدًا فى دارك .. بأى ثمن .. سآخذك إلى المستشفى .. »

راح يتكلم بصوت كالفحيح فلم أفهم شيئًا ..

هكذا فتحت خزانة ثيابه وبحثت عن ثياب تصلح .. إن لديه أروع مجموعة من الكرات فى خزانة ثيابه .. كرات هى قمصان ، وكرات هى سراويل ، وكرات صغيرة خبيثة الرائحة هى جوارب .. ويبدو أنه يختار كرة من كل مجموعة صباح كل يوم .. لا أكثر ولا أقل ..

هكذا انتقيت ثلاث كرات ، ودسسته فيها ، ثم أسندت ذراعه على كتفى ونزلنا فى الدرج ...

ساعدنى بواب البناية مع أحد المارة ، وإن أصابهما الذعر من كل هذا التشوه الذى ظهر على وجه (عزت) فقلت لهما فى ثقة :

ـ « ليس معديًا ! لا تخشيا شيئًا ! »

وضعناه في سيارتي ، بينما البواب يضرب كفًا بكف .. لقد كان الأستاذ (عزت) سليمًا كجرس من يومين .. ماذا حدث ؟ إنها حياة العزوبة عليها اللعنة ...

لم أعلق وانطلقت بالسيارة نحو المستشفى الذي أعمل به ..

أصيب الأطباء بالهلع ، خاصة هؤلاء الذي رأوه أول أمس .. لقد تبدل بصورة لا تصدق حتى صار يذكرك بالرجل الفيل .. إحدى أشهر حالات التشوه في تاريخ الطب ...

وعلى كل حال لم يكن في جعبتي الكثير .. حاولوا إبقاء هذا البائس حيًا .. لو انخفض ضغطه فارفعوه ، ولو ارتفع فاخفضوه .. لو أصابته الحمى فقللوا حرارته ، ولو انخفضت حرارته .. حسن .. حاولوا أن تدفئوه قليلاً ...

وغادرت المستشفى شاعرًا بأن الوقت يضيق ..

يضيق حتى صار على اتخاذ قرار سريع ...

د. (لوسيفر) أيها الأحمق .. الأمر بيني وبينك فلماذا تعذب هذا البائس ؟

لكن الإجابة كانت واضحة .. أنا أتعذب أكثر من أي شخص في هذه القصة .. بالفعل الانتقام موجه لي وليس لسواي ، خاصة مع كوني أعرف ما ينبغي عمله تقريبًا ..

* * *

وحيدًا في الصحراء أوقفت سيارتي ...

نظرت حولي في ستة الاتجاهات .. يمين .. يسار .. وراء .. خلف .. فوق .. تحت .. لا أحد يراني ..

مددت يدي وأخرجت الصندوق ووضعته على كبود السيارة ..

أخذت شهيقًا عميقًا ثم مددت يدي إلى المفتاح ...

أولجته في القفل وأدرته ...

من ثم وثب الغطاء مفتوحًا ...

* * *

وقفت أنتظر بعض الوقت ..

أنتظر رحلتي الشنيعة إلى عالم الأساطير الإغريقية ..

أتصور أن يظهر الرخ من جديد ليناوشني ، ويتلذذ بالتهام كبدي ..

أنتظر الجنون الذي سيزحف على أعصابي حتى أجن .. ربما أضرب رأسي في السيارة حتى ينفجر ، أو أقودها نحو الهاوية .. سمعت عن مخابيل ينتحرون بابتلاع لسانهم فهل هذا وارد ؟

الحقيقة أن (لوسيفر) قوي جدًا .. قوي إلى درجة مفزعة .. لمَ لا ؟ ألم تر كيف يرتجف منه سادة (جانب النجوم)

ويطيعونه بلا مناقشة ؟ فقط أنت تنسى ذلك أحيانًا .. تمزح معه أو تتكلم .. وللحظات تعتقد أنه فى مستواك ، وأنكما تلعبان لعبة شطرنج عقلية لا أكثر ..

من دقائق رأيت ما يستطيع هذا الوحش أن يفعله .. وعرفت أن الخصم العقلى الذى تتصوره ، يملك قوة مريعة ..

بالواقع ليس هناك من ينافس هذا الكائن فى قوته .. لكنى لست وحيدًا .. إن الله معى .. أعرف هذا وأؤمن به ..

لقد مرت دقيقة ولم يحدث شىء ..

هكذا مددت يدى إلى الصندوق ورحت أبحث فى داخله ..

لقد كان خاويًا تمامًا !

لا توجد بطانة أو جيوب سرية .. مجرد صندوق خال ...

ووقفت أنتظر ...

بضع دقائق أخرى ، ثم بدأت أشعر براحة تغمرنى .. أمل خالص يتسرب إلى نفسى .. سوف أربح هذه المعركة .. أعرف هذا ..

انتظرت حتى بدأ ذلك الشعور يثبت فى نفسى ويستقر ثم أغلقت الصندوق ..

* * *

11- خاتمة ..

لم يكن ما قمت به ضربًا من السحر أو المغامرة التى نجحت ..

لقد بنيت عدة استنتاجات واتضح أنها صائبة أو هذا ما أعتقده ..

أولاً : قام الصندوق بتأثيره الشيطانى فى كل مرة فتح فيها .. ما عدا مرة واحدة ، هى تلك الليلة التى استوقفنى فيها كمين الشرطة .. فما معنى هذا ؟ ثمة احتمال أن اسم (بسطويسى) يعطل عمل الصندوق .. لكنى أستبعد أن يكون (لوسيفر) نفسه قد سمع بهذا الاسم من قبل .. فكرت فى الظلام .. فى دخان التبغ .. لكن هذه جميعًا كانت عوامل موجودة فى مرات سابقة أدى فيها الصندوق عمله ..

فكرت فى أن الصندوق لا يؤدى عمله إلا مع شخص أو شخصين على الأكثر .. لكن هذا ليس صحيحًا .. كان هناك زحام فى الورشة بينما كان (رمزى) وحده .. أى أن عدد الأشخاص لا يلعب دورًا ..

هنا خطر لى الأمر كوهج .. نوع من الإلهام .. لقد كان

الصندوق يعمل دائمًا فى الأماكن المغلقة .. بينما المرة الوحيدة التى لم يعمل فيها كانت فى العراء .. تقول الأسطورة إن (بندورا) فتحته فى دارها .. لهذا فكرت فى أن أفتح الصندوق وأفتشه فى العراء ..

كانت مقامرة لكنها نجحت ...

النقطة الثانية هى أن أهوال الصندوق تدفع كل إنسان إلى الإسراع بغلقه على الفور .. حدث هذا مع (بندورا) نفسها .. لكنها ارتكبت بهذا خطأ جسيمًا لأنها حبست روحًا أخيرة .. الأمل ..

قررت أن أفتح الصندوق وأتركه حتى النهاية .. وقدرت أنه لو التزم (لوسيفر) حرفيًا بالأسطورة ، فإنه لن ينسى هذه الجزئية ..

أعتقد أن هذا صحيح ... لو كانت هناك آثار سلبية حلت بالعالم من الصندوق فقد أزالها الأمل ..

أعتقد أن الصندوق خال الآن ومأمون ..

لهذا حفرت حفرة عميقة فى الصحراء ، ثم دفنت ذلك الشىء الكابوسى فيها ، وأهلت عليه الرمال ..

لو كان تقديرى صحيحًا فأنا لن أجده ينتظرنى فى دارى لدى العودة ..

طبعًا قمت بتحديد مكان الحفر .. لا أريد أن أكتشف فجأة أن الصندوق ما زال مهمًا ، بينما أكون قد فقدت أثره للأبد ...

الآن ... ما زالت هناك مشكلة صغيرة ..

(عزت) ..

* * *

كنت أعرف الآن أن موضوع الترياق صحيح ..

ليس لأن د. (لوسيفر) صادق أمين ، فهو وغد لا يتورع عن شىء ، ولكن لأنه يملك ولعًا بالدقة واللعب حسب القواعد .. كما قلت هو يستمتع بوقته لا أكثر ولا أقل ، ولو كان تفكيره عمليًا (براجماتيًا) لفتك بى منذ عشرات الأعوام ...

ـ « لأن الحمقى من أمثالك هم ما يجعل للحياة طعمًا .. إن (المانوية) تقول إن الشر ضرورى للكون كالخير ، ولولا الشر ما وجد الخير .. إن الحياة لا تستقيم إلا بوجود مصاصى الدماء وقتلة مصاصى الدماء .. لهذا تركتك حيًا لأن جولات كثيرة تنتظرنا معًا .. جولات أكثر إمتاعًا من هذه ! »

هو قالها لى ذات يوم فى (هالماجيو) ، وكان على حق ..

إذن على أن أفترض أن الترياق موجود ..

لكن أين هو ؟

لا أنكر أن الصندوق فتح مرة واحدة بشكل كامل قبل وصول المفتاح .. المخبر فتحه لكن قال إنه لا يحتوى شيئًا .. من يدرى ؟ ربما لم يهتم بأنبوب صغير ملقى فى ركن ، لو كان الترياق بهذا الشكل .. كان يبحث عن (طرب) الحشيش أو يد الجثة أو المنشورات .. فلماذا يهتم بأنبوب صغير ؟

فيما بعد فتحه د. (رمزى) ..

فماذا فعل ؟ لو كان قد وجد شيئًا فقد نسى الأمر وسط الجنون الذى أصابه ...

هكذا قدت سيارتى من جديد إلى بيت (رمزى) ..

كانت الأمور قد هدأت قليلاً .. لم يعد هناك إلا الكثير من القذارة ..

فتح لى الباب متوجسًا .. إنه يمر بالمرحلة التى يمر بها كل من يعرفنى .. حين يتبين بوضوح أننى شخص خطر وأن وجودى ذاته كارثة ..

قلت له وأنا أقتحم شقته :

ـ « هل نظفت غرفة المكتب ؟ »

قال فى ضيق وهو يغلق الروب الذى يرتديه :

ـ « كنا منهمكين فى ذلك لولا ... »

ـ « إذن أسرع .. »

ودخلت المكتب معه .. ودون إنذار ركعت على ركبتى ورحت أفتش عن شىء على البساط .. موضع القدمين .. فتحت الدرج وبحثت فيه .. هتف مغتاظًا :

ـ « هل فقدت مليون جنيه هنا ؟ »

قلت فى صبر وأنا أفتش تحت المقاعد :

ـ « أبحث عن الترياق .. ظننت هذا واضحًا .. »

ـ « وهل تعتقد أننى كنت سأجده فلا أخبرك ؟ »

ـ « أنت كنت غارقًا فى ألف مشاجرة مع الجيران .. من الممكن أن تنسى .. »

قال وهو يهز يديه بإصرار :

ـ « مستحيل .. أنا أؤكد لك أن الصندوق كان خاليًا .. »

رحت أواصل التفتيش بلا جدوى ...

لقد أسقط فى يدى .. فلا أعرف موضعًا آخر يمكن أن ...

قلت له وأنا أتجه لباب الشقة :

ـ « لا أريد أن أكون فظًا ، لكننا فى الدقائق الأخيرة من حياة فتى لا ذنب له .. يجب أن أجد هذا الترياق .. »

ـ « ومن قال إن هناك ترياق ؟ »

ـ « أنا متأكد من ذلك .. »

* * *

ومن جديد انطلقت بسيارتى ...

هناك احتمالات عديدة .. هل اختلس المخبر الأنبوب لنفسه عسى أن يكون شيئًا ثمينًا ؟

أعتقد أن على أن أعود لدارى أولاً كى أتحقق من ... أنا لم آخذ شيئًا من الصندوق ، لكن لابد من أن أعاود التحقق ..

وفتحت باب شقتى ورحت أفتش هنا وهناك ..

بحثت فوق المنضدة وسط تماثيل (الزولو) وتحتها .. من يدرى ؟ ربما فعلت شيئًا وأنا فى تلك الغيبوبة أتخيل نفسى (بروميثيوس) معلقًا بين جبلين ..

ربما أخرجت الأنبوب وسقط من يدى ..

ربما ..

هنا خطرت لى فكرة أخرى ..

هرعت إلى سلة الغسيل فى الحمام .. هناك ذلك القميص الذى تلوث بدمى فى تلك اللحظات .. لقد وضعته هناك ولم ألمسه من لحظتها ..

أخرجت القميص وتحسست جيبه عند الصدر .. لا أنابيب ..

لقد فعلت ما بوسعى ولم يعد فى جعبتى شىء آخر .. فقط يعلم الله إننى حاولت ..

هنا شعرت بشىء فى الجيب ..

مددت يدى فشعرت بتلك اللفافة الصغيرة .. إنها قطعة من الكتان ملفوفة بعناية حول مسحوق ..

هذه هى مشكلة التحيزات المسبقة والقولبة الفكرية Archetype .. لقد وقع فى وجدانى ويقينى أن الترياق لا يوجد

إلا فى أنبوب اختبار أو زجاجة صغيرة .. هكذا علمتنا القصص .. فماذا عن لفافة بها مسحوق ؟

لقد وجدتها وأنا أفتش ذلك الصندوق .. وبينما أنا فى تلك الغيبوبة دسست اللفافة فى جيبى .. أعتقد أن هذا كان مرسوماً .. موقف السخرية الذى يروق لد. (لوسيفر) .. أنا غارق فى التساؤل عما إذا كان على أن أفتح الصندوق أم لا ، بينما ما أريده من الصندوق موجود خارجه فعلاً ..

وهكذا هرعت أغادر الشقة وأركب سيارتى من جديد نحو المستشفى ..

* * *

فرغت من جعل (عزت) يشرب آخر قطرة فى الكوب الذى أذبت فيه ذلك المسحوق ..

كان الأمر عسيراً لأنه كان يحتضر تقريباً .. لكن شفتيه الجافتين راحتا تمتصان السائل كريه الرائحة .. لابد أن مذاقه شنيع .. لكنى أعتقد أنه هو الإنقاذ ...

سألته وأنا أناول الكوب لممرضة تقف جوارى :

ـ « هل تشعر بتحسن ؟ »

هز رأسه أن نعم ، وأغمض عينيه ليستريح بعد كل هذا الجهد ..

كنت أعرف أنه سيتحسن .. قواعد اللعبة تقول إنه سيتحسن ..

جلست منهكاً شاعراً للمرة الأولى بالإنهاك بعد كل هذا الصراع .. إن من يمشى ألف ميل لا يشعر بالتعب إلا بعد إنهاء الرحلة ..

ودنا طبيب شاب منى يسألنى فى فضول :

ـ « ما هذا الدواء الذى شربه ؟ »

قلت له فى إنهاك :

ـ « هذا هو الترياق الذى كان فى صندوق (بندورا) .. هذا هو أسلوب د. (لوسيفر) فى العمل .. أنت تفهمنى أليس كذلك ؟ »

* * *

أشعر بحاجة ماسة إلى الراحة .

أشعر بحاجة إلى إجازة طويلة أستعيد فيها ثبات أعصابي ..

لكن كانت هناك قصة رهيبة تنتظرني ..

كان على أن ألقى المحركين .. وكان على أن أواجه لغزا غامضًا .. بمعنى آخر .. كان على أن أعود إلى روتين حياتى الممل ..

ولكن هذه قصة أخرى .

د. رفعت إسماعيل

القاهرة